عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العدد 78 / 16 أيلول 2016

جرابلس بعد التحرير
عدسة كرم - خاص عين المدينة

ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

الافتتاحية

بين داريا وحلب

حملت الأيام الماضية لنا انتكاستين موجعتين؛ تمثلت الأولى في إجلاء من تبقى من أهالي داريا، مقاتلين ومدنيين، عن هذه المدينة التي غدت إحدى أيقونات الثورة من نواحي متعدّدة. وتبعتها الثانية باستعادة النظام السيطرة على الكليات العسكرية جنوب حلب وإعادة إحكام طوق حصاره على ثلاثمائة ألفٍ من سكان الأحياء المحرّرة من هذه المدينة.

قيل الكثير عن هاتين الواقعتين الثقيلتين، ووُجّه اللوم إلى أطرافٍ هنا وفصائل هناك، كما هي حال الخسارات دوماً، يتقاذفها الناس ككرة نار على وشك الانفجار، محمّلين بعضهم المسؤوليات. لن ندخل هنا في هذا الباب من التلاوم، لإيماننا أن الظروف ثقيلةٌ على الجميع على حدٍّ سواء، مقتدين في ذلك بقول أحد مقاتلي داريا: «لم يخذلنا أحد». فالأجدر في مثل هذه الأوقات النظر إلى البسالة الملحمية التي أبداها مقاتلو المعركتين في كلٍّ من داريا وحلب أمام كثافةٍ وحشيةٍ في النيران تمتلكها قوات العدوّ الأسديّ مع تفوّقها بميزة استخدام سلاح الجوّ، واستعانتها بالروس والإيرانيين وشذّاذ فيافي الطائفية من لبنانيين وعراقيين وأفغان. ورغم ذلك استطاع ثوّار داريا الصمود لسنوات، وتمكن مجاهدو حلب من اجتياح الكليات في يومٍ واحدٍ يستعدّون لتكراره قريباً.

غير أن ما تقوّله التجربتان لا يقتصر على هذا التشابه، بل يتعدّاه إلى اختلافٍ في الطبيعة والبنية يلقي الضوء على ما تعانيه هذه الثورة اليتيمة من عجز المجتمع الدوليّ وتردده. ففي حلب قامت المعركة على أكتاف جيش الفتح أساساً، مع الثقل الوازن فيه لجبهة فتح الشام (النصرة سابقاً)، وبدورٍ فاعلٍ للتركستان وسواهم من «المهاجرين» الذين يمنحون الشمال صفته «الإرهابية» في نظر المجتمع الدوليّ. أما في داريا المهذبة، التي قدّمت الورود لقامعي مظاهراتها علّهم يخجلون قليلاً، فقد كان جميع المقاتلين من الجيش الحرّ بأفضل أشكاله، ومن المؤمنين بمستقبلٍ مدنيٍّ ديمقراطيٍّ للبلاد، ولكن ذلك لم يُحدث فرقاً للأسف. فمع صورة قاسم سليماني جنوب حلب وصورة بشار الأسد يقترف ما يزعم أنه صلاة العيد في داريا وصلت الرسالة ذاتها من كلتا المعركتين للسوريين الثائرين: مهما كنتم فأنتم متروكون لمعادلات القوّة المحضة.

ويسألونك عن أسباب التطرّف... ويلومونك على عدم وجود شريكٍ «موثوق».

3 في حيّ الوعر.. حيث يطلق كنان النار كلما غضب

4 هنا ذبحوا جاسر، وعلى هذا العمود صلبوه

5 داعش.. من حلم التمدد إلى توسل البقاء

10 يوم انتحر عفلق

11-13 جرابلس بعد التحرير (ملف)

14 العوامل الداخليّة في قوّة أو استمرارية النظام

15 يتسرّبون كقطعٍ من الروح

19 العقيد فضل الدين ميكائيل

خاص عين المدينة

في حيّ الوعر..
حيث يطلق كنان النار على الأهالي كلما غضب

لا يريد أبو إياد (70 عاماً) مغادرة بيته في حيّ الوعر الحمصيّ المحاصر، رغم الجوع والمرض والخوف، فهو يخشى «ذل النزوح والبهدلة ببيوت الناس»، ويأمل في أن يحفظ «كرامة آخر هالعمر»، ولقد قرر «رح موت ببيتي، ما ضل شي يستاهل أهرب فيه من القصف ومن الموت».

سناء الحمصي

كان أبو إياد من أوائل سكان حيّ الوعر الجديد في ثمانينات القرن الماضي. مكّنه حسن اقتصادٍ من دفع أقساط هذا البيت في جمعيةٍ سكنية شكلت -مع جمعياتٍ سكنيةٍ أخرى- حيّ الوعر الجديد، المنبثق عن القديم الناشئ في الستينات عبر جمعيةٍ سكنيةٍ للمعلمين وأخرى للقضاة شكلتا حينها قوام الحيّ الذي اختاره أبناء الطبقة الوسطى المتعلمون من سنّة المدينة ونسبة من مسيحييها سكناً لهم. ولم تتغير هذه التركيبة خلال العقود اللاحقة مع هجرات الريف العلويّ التي اختارت توسعاتٍ عشوائيةٍ وشبه عشوائيةٍ بعيدةٍ عن الوعر، في أحياء عكرمة والنزهة والزهراء وغيرها، «مستوطناتٍ» لها. خلال الثورة اضطرب المشهد السكانيّ في الوعر بفعل موجات النزوح المتتالية إليه في كلّ مرّةٍ تجتاح قوات الأسد الأحياء الثائرة، ليصل عدد ساكنيه إلى (400) ألفٍ أول العام 2013. قبل أن يصير الحيّ الآمن هدفاً عسكرياً لتلك القوات، لتنعكس وجهة النزوح وينخفض العدد بالتدريج إلى نحو (50) ألفاً اليوم. يفسر أبو اياد عدم اقتحام قوات الأسد الوعر بأنهم أشبعوا غرائز «حيونتهم قبل؛ بالخالدية وبابا عمر والبياضة ودير بعلبة. ما صفيان إلا الوعر، وإيمتى ما رجعو جنّو رح يفوتوه».

على عكس زوجها الذي اعتاد على أصوات الانفجارات والقذائف، ما زالت أم إياد تفزع مع كل رشقة (شيلكا) من المشفى الوطني حيث تتمركز قوات الأسد، أو من قرية المزرعة وبساتينها حيث تنتشر قوات الرضا. ومن سكان هذه القرية الشيعة وسكان شقيقتها الحيدرية تخاف أم إياد أكثر مما تخاف من أيّ جماعاتٍ أخرى، لأنهم «يخططون لطرد السنة والاستيطان مكانهم» حسب شائعاتٍ يتداولها أهل الوعر كخطةٍ مؤكدةٍ أعدّها حزب الله «ليؤمّن طريقه من حدود لبنان إلى قلب حمص». وعلى وقع هذه الشائعات يحتار أبو فهد في انتقاء مخبأٍ محصّنٍ ضد الحريق أثناء القصف، يخبّئ فيه أوراق ملكية بيته المهدد من «الشيعة؛ سوريين من هون، وعراقيين ولبنانيين ومن أفغانستان»، حسب ما يعدد المخاطر متعددة الجنسيات.

أسهم الموقع الجغرافيّ للحيّ في تشديد الحصار عليه، إذ يقلص انقطاعه عن المدينة بأكثر من (4) كم من جهة الشرق، ووقوع الكلية الحربية في شماله، ثم كتيبة المدفعية وقريتي المزرعة والحيدرية من الغرب والجنوب، من إمكانيات تهريب الأغذية، وجعلها رهينةً برغبات العناصر على حاجز الفرن شمالاً، حيث الممرّ الوحيد الذي تسمح به قوات الأسد للموظفين وطلاب الجامعات بالخروج والعودة، بشرط ألا يتجاوز وزن ما يحمله العائد من خضرواتٍ الكيلو غرام الواحد، ويمنع إدخال أي مادةٍ غذائيةٍ قابلةٍ للتخزين. وشكلت ثلاث شحناتٍ من مساعدات الأمم المتحدة، المصدر الغذائيّ الرئيس لمعظم السكان. ومن الطحين والعدس والفاصولياء الجافة في هذه الشحنات نشأت سوق مقايضةٍ مقابل مواد أخرى ينجح بعض الباعة في تسريبها إلى الحيّ. يقول محمد، وهو ناشطٌ مطلوبٌ لقوات الأسد، إن (20-30) كيلو غرام من الفاصولياء الجافة تقايض بـ«فروجة أو ببطارية 7 أمبير أو 100 غرام دخان لف. لكن مهما جمع الواحد فاصوليا أكيد راح تخلص». ليلجأ إلى التقشف الشديد أو اختراع البدائل، مثل توليد الكهرباء بالدراجات الهوائية وفق النواتج التالية «ساعة حركة بالبسكليت تشحن الموبايل 60 بالمية، وساعة ونص تشغل ضوّ صغير تلات ساعات».

ومن بين جنود وضباط جيش الأسد، و«شبّيحة» دفاعه الوطني، وقوات الرضا، المحاصرين للوعر؛ يميز الناس اثنين فقط، هما القائدان المتناوبان لحاجز الفرن، كنان وأبو خلدون. وينقل المارّون عبر هذا الحاجز تحديثاتٍ يوميةً بآخر أفعالهما: «كنان اليوم معصّب ما خلى الخيار يفوت، وفعس كياس البندورة»، أو «أبو خلدون الحيوان بزق على ستّ مقدّرة وقال لها: انقلعي وليه ارجعي، آي طلعة». ويبدو أن كنان المتحدّر من حيّ الزهراء أسرع غضباً من أبو خلدون ابن ريف طرطوس وأشد رعونة، ففي واحدةٍ من جرائمه المزاجية الشهيرة سمح كنان، على غير عادته، لعشرات الرجال والنسوة من كبار السنّ بشراء الخبز من الفرن الملاصق لحاجزه، وعند اقترابهم غضب فجأةً وأخذ يطلق النار، ليردي ثلاثة رجالٍ وامرأةً ويصيب أكثر من عشرةٍ بجروح.

يحسب أهل الوعر لعناصر قوات الرضا حسنةً واحدة، هي قتلهم أو إصابتهم كنان في اشتباكٍ جانبيٍّ بين الطرفين، خلّص

هنا ذبحوا جاسر، وعلى هذا العمود صلبوه

خليفة الخضر

يشرح مصطفى (البالغ من العمر 17 عاماً) حادثة إعدام جاسر، وهو مقاتلٌ سابقٌ في صفوف كتائب الفاروق في مدينة منبج. تطفح ذاكرة مصطفى بمشاهد القتل والتنكيل التي مارسها تنظيم «داعش» في حقّ أهالي منبج طيلة احتلاله للمدينة منذ كانون الثاني عام 2014؛ لكنه كان يتناساها -حسب ما يقول- كلما مرّ قرب حاجزٍ أو مقرٍّ للتنظيم.

جاسر واحدٌ من عشراتٍ قتلهم وصلبهم تنظيم «داعش» في منبج، لكن مصطفى يحتفظ -إضافةً إلى ذكرى هذا الإعدام- بصورةٍ خاصّة استطاع أن يلتقطها خلال تنفيذ الحكم. تمّ إلقاء القبض على الأخوة، جاسر وعدنان وإبراهيم، بُعيد سيطرة «داعش» على المدينة، ليطلق سراحهم بعد شهر. لكن مطلّقة إبراهيم وشت لـ«داعش» بأن الأخوة الثلاثة قاتلوا في صفوف الجيش الحرّ ضد التنظيم في معارك سابقة، متهمةً زوجها السابق، غير المسلح بالأساس، بالانتماء إلى إحدى الكتائب. عانى الأخوة الثلاثة كافة أنواع التعذيب لانتزاع الاعترافات على جرائم قتلٍ لم يقترفوها بالطبع. وخلال سبعة أشهر بعد ذلك، مات جاسر وأخواه تحت التعذيب عدّة مرّاتٍ حسب شائعاتٍ تداولها الناس خفية، إلى أن أصدر قاضي «داعش» حكمه بإعدامهم في مواقع مختلفة وفي التوقيت ذاته: (يُقتل إبراهيم ويصلب عند مدخل مدينة جرابلس، ويُقتل عدنان عند دوار الجزيرة في منبج، أما جاسر فيقتل ويصلب على دوار جرابلس في منبج أيضاً). ولقرب هذا الدوار من منزله، استطاع مصطفى حضور إعدام جاسر. «سمعنا أنه اليوم بعد صلاة العصر يعدمون عنصر جيش حر، وعالأغلب يكون جاسر العوني»، يقول مصطفى متذكراً ذلك اليوم، حين تجمع الناس عند الدوار ينتظرون سيارات «داعش» التي لم تتأخر، لينزل منها جاسر يقوده أربعة عناصر بسبب ضخامة جسمه. وعلى غير العادة لم يتلُ قاضي «داعش» الحكم أمام الناس، لأن أخباراً ترددت بأن أهل جاسر وعشيرته سيحولون دون تنفيذ الحكم. ربما سمع جاسر بهذه الأخبار من بعض الأصوات التي تعالت من بين الجمهور، حسب ما يفسر مصطفى محاولة جاسر الإفلات من الموت، حين تمكن من فك الحبال عن جسمه ثم الهجوم على عناصر «داعش» حوله والعراك معهم بالأيدي، قبل أن يطلق أحد «الدواعش» الرصاص على قدميه فيقع أرضاً، ثم يُحمل إلى أقرب عمودٍ إسمنتيٍّ ويوثق من جديد، وهو يصرخ ببراءته. وبسرعةٍ، ودون أن تربط عصابة على عينيه، أطلقت رصاصتان من بندقيةٍ على رأسه.

مات جاسر، وظل عددٌ من عناصر «داعش» يحرسون جثته. حاول أهله وأقاربه أخذ الجثة وخاضوا شجاراتٍ كلاميةً مع هؤلاء العناصر، قبل أن يعتقلوا جميعهم، وظل مصطفى وابن عمٍّ لجاسر يراقبان الجثة عن بعد. حسب تقاليد «داعش» تظل جثة المحكوم معروضةً للمارّة ثلاثة أيام، وربما نقلت خلال هذه المدة من مكانٍ إلى آخر لإرهاب أكبر عددٍ ممكنٍ من الناس ولتعميم عبرتها الوحشية، ولمزيدٍ من التنكيل بضحاياها وأهلهم أيضاً. يقول مصطفى: «الفجر، بعد ثلاث أيام من الإعدام، جابوا تركتور وتريلا تبع زبالة وشالوا جثة جاسر بيها». لحقناهم لنعلم أين تدفن الجثة أو ترمى لكي نعيد دفنها بشكلٍ لائق. لكنهم، وبعد مسافةٍ على الطريق خارج المدينة، اكتشفوا أمرنا واعتقلونا لمدة شهرٍ ونصفٍ بتهمة التعقب والمراقبة.

اليوم، وبعد أن طُردت «داعش» من منبج، يظل البحث عن جثة جاسر وأخوته، وعشراتٍ آخرين ممن قتلتهم «داعش»، هاجساً للأهالي. ويظل تتبع أخبار المعتقلين في سجون التنظيم، من سجنٍ إلى آخر ومن مدينةٍ إلى أخرى، هاجساً أيضاً لذويهم المعذبين بأنباءٍ متضاربةٍ حول مصيرهم.

خلال عامين ونصفٍ من احتلال منبج، شكلت ساحات المدينة مسرحاً مفضلاً للتنظيم لتنفيذ أحكام الإعدام. وأسهمت الصور ومقاطع الفيديو التي نشرها التنظيم من هذه الساحات في تشكيل الانطباع المرعب عنه. يقول مصطفى: «ذبحوا كثير بالسر وبالعلن، وما ظل بيت بمنبج تقريباً ما آذته داعش».

من حلم التمدد إلى توسل البقاء
تنظيم الدولة الإسلامية يعيد ترتيب أولوياته

علي خطاب

جاء الانحسار المستمرّ لسيطرة تنظيم الدولة الإسلامية، وتقلص موارده وعناصره، بخطابٍ يلائم الخسارة والانهيار الذي ينتظره قادته المؤسّسون، الذين لم يبق منهم -بحسب البعض- سوى اثنين (طارق الجربا الجزراوي وإياد الجميلي الأنصاري). يرافقه خطابٌ أقل رسميةً يحاول استثمار المتاح من الوسائل للحفاظ على ما تبقى من مكاسب التنظيم، والتوسل للقبول به كغيره من كياناتٍ موجودةٍ بحكم الأمر الواقع في المنطقة.

لم يعد خافياً تحضير التنظيم عناصره ومناصريه نفسياً لتقبل فكرة سقوط دولته الموجودة حالياً، والتي ارتبطت في وعي الكثير من العناصر الجدد بالجغرافيا التي يشغلها التنظيم، ثم التي ينوي التمدّد إليها. على أن التحضير لم يكن نتيجة طرده من ثلث الأراضي التي سيطر عليها فقط، بل كذلك بسبب وعي مؤسّسيه -الثلاثة والأربعين كما يشاع- منذ البداية أن التمدد مجرّد مغامرةٍ قد تؤول إلى الفشل. ولذلك، فمنذ وصولهم إلى سوريا بدأ شرعيوهم بإقناع العناصر أن «الدولة الإسلامية فكرة» أكثر منها كينونة، خاصةً أن أولئك العناصر لم يكونوا يعرفون شيئاً عن التنظيم العراقيّ وهو في حالة ضعفه وانكماشه قبل التمدد.

وفي إصداره الجديد «خذّلوا عن دولتكم»، الصادر عن المكتب الإعلاميّ في «ولاية الخير»، يذكر التنظيم شروطه لوقف الهجمات على الغرب، الصليبيين بحسب تعبيره: «يخرجوا من أرض المسلمين وعلى رأسها القدس والأندلس، ويتركوا دعم الطواغيت، ويتوقفوا عن تنصير المسلمين، ويخرجوا الأسارى، ويعطوا الجزية». ويخاطب مناصرين افتراضيين في الغرب، فيحاول إقناعهم بجواز قتل المدنيين هناك، لأنهم، كما يقول الإصدار: «عندما تأتي قراراتٌ من حكومتهم على معيشتهم أو وظائفهم تهتز الدنيا ولا تقعد، حتى يتراجعوا عن القرار. وعندما أصدر القرار بقتالنا وقتل الأبرياء من المسلمين والمجاهدين، لم يفعلوا شيئاً». ويختم الإصدار بقوله: «انتظروا فإن القادم أدهى وأمرّ أيها الصليبيون، ستتوالى غاراتنا ما دام طيرانكم يقصف أهلنا. هذه بتلك، والأيام بيننا».

إذاً، رغم كل الشروط الذي يضعها لوقف العمليات ضد المدنيين، لم يعد التنظيم يرغب في خوض معركةٍ مفتوحةٍ مع الغرب وجرّ مليون مقاتلٍ من الصليبيين إلى مرج دابق، كما كان يريد، بل تراجع عن ذلك بإرسال الرسائل المزدوجة إلى المدنيين في الغرب؛ فمن جهةٍ يخوّفهم ويتوعدهم بعملياتٍ مشابهةٍ لعمليات بروكسل وباريس وغيرها، ومن جهةٍ يقايضهم الأمان بالضغط على دولهم، حين يدعوهم إلى التظاهر ضد حكوماتهم لوقف عمليات التحالف ضده.

يأتي هذا بالتزامن مع إعادة ترتيب الأعداء، إذ يقفز العدو المؤجل والبعيد «إسرائيل»، بحسب أدبيات التنظيم، إلى الصدارة، وذلك عن طريق الترويج لإطلاق صواريخ باتجاه «إسرائيل» عبر «ولاية سيناء»، عدا عن استعمال إعلام التنظيم المأساة الفلسطينية مؤخراً في منافسة مشايخ مشهورين وكياناتٍ وفصائل موجودةٍ على الأرض منذ زمن، بالإضافة إلى الحكومات العربية، الأمر الذي مرّ به ذات الإصدار في مقدمته، في حين كان العدو الأقرب هو «المرتدين» والحكومات العربية والإسلامية وقت التمدد. وقد انتشرت آنذاك أنشودة «يا عاصب الراس» التي يردّ أحد أبياتها على من يدعو التنظيم إلى شنّ هجماتٍ ضد إسرائيل، ويقول: «غزة من يمّك قريبة/ وتعدّها لي معيبة»، (بمعنى: لا تعبْ عليّ عدم محاربتي إسرائيل، فأنت أيضاً لا تحاربها، أو حاربها أنت!).

كما تحوّل إعلام التنظيم منذ أشهرٍ إلى عرض الدمار الذي يسبّبه القصف، وصار يركز على الضحايا المدنيين جراء استهداف الطيران المناطق التي يسيطر عليها، وكان ذلك غائباً كلياً عن إعلامه في مرحلة التمدد والتفاؤل بقضم مناطق أخرى، على أن هذا التركيز لم يخرج عن منطق الاستخدام المصلحيّ والتوظيفيّ. وقد جاء «خذّلوا عن دولتكم» لتأكيد ذلك، من خلال عرض شهاداتٍ من القورية في دير الزور، بعد المجزرة التي ارتكبها الطيران الروسيّ هناك بتاريخ 2016/6/25، في سياق التحريض على دول التحالف التي لا تضمّ روسيا أصلاً. ويصبّ ذلك في الحملة التي يشنها التنظيم لتحريض «ذئابٍ منفردة» خارج أراضيه، بعد أن خبا وهج المعارك التي كان يخوضها.

في النهاية، لطالما عزف التنظيم على الوتر الطائفيّ المشدود إلى أقصى حدوده لدى سكان دول المنطقة، وحاول بشتى الطرق تحريكهم ضد حكوماتهم، أو دعوتهم إلى دولته، لكن إعلامييه ومناصريه يتحدثون منذ مدّةٍ عن الندم الذي سيصيب حكام الخليج «لتحالفكم مع أمريكا في العراق، وتمدد الشيعة على حساب أهل السنة»، كما يستبق أحدهم، و«عندما يقرع الشيعة أبواب حدودكم المصطنعة، ستقولون يا ليت لم نحارب الدولة الإسلامية». فهل يحاول التنظيم عبر كل هذا تقديم أوراق اعتماده للاعبين محليين وإقليميين ودوليين ليحافظ على كيانٍ يترك الغرب و«إسرائيل» وشأنهم، ويقف في وجه خطر تمدّدٍ إيرانيٍّ مستمرّ؟!

درعا بين مطرقة الاقتتال وسندان المصالحات

محمد شباط

لم تعد تُسمع أصوات الرشقات الخارجة من بنادق أبطال درعا معلنةً الفرح بتحرير حاجز أو قطعة عسكرية من قوات النظام، ولم تعد النساء تخرج إلى الشرفات حاملاتٍ الأرز وقطعاً من السكاكر لينثرنها فوق رؤوس أولئك القادمين، بل أصبحت الرشقات المخيفة دلالةً -في معظمها- على اشتباكٍ محليّ.

أجواءٌ مختلفةٌ تعيشها محافظة درعا في العام السادس للثورة التي انطلقت منها شرارتها الأولى، وسطرت فيها العديد من الانتصارات والبطولات التي كان أبرزها تحرير اللواء 61 الذي يعدّ أكبر الألوية في سورية، والذي يحوي تل الجابية الإستراتيجيّ، وتمّت السيطرة عليه خلال أقلّ من اثنتي عشرة ساعة، وكتبت الصحف العالمية وقتها عن قوّة المعارضة وحنكتها في تحريره. وكان آخر تلك الانتصارات تحرير اللواء 52 مدرّعات. ولم تشهد درعا بعد ذلك أيّ نصر، بل كان الحدث الأكبر مؤخراً خسارة قوات المعارضة لأكبر نقطةٍ استراتيجية في المنطقة وهي مدينة الشيخ مسكين بعد معارك عنيفةٍ مع قوات النظام والميليشيات المساندة له، وبالمشاركة الأولى لسلاح الجو الروسّي. وفي غضون ذلك سيطرت قوات النظام على بلدة عتمان أيضاً.

ورافقت ذلك عدّة انكساراتٍ شهدتها الجبهة الجنوبية كان أبرزها إعلان حركة المثنى الإسلامية، التي كان لها التأثير الأقوى في تحرير العديد من النقاط والمناطق الإستراتيجية، مبايعتها تنظيم الدولة الإسلامية، متحدةً ضمن جيشٍ واحدٍ مع لواء شهداء اليرموك، المبايع الآخر للتنظيم، باسم جيش خالد بن الوليد. وحدثت إثر ذلك معارك عنيفةٌ بين فصائل الجبهة الجنوبية والفصائل المبايعة للتنظيم، فقدت محافظة درعا خلالها صفوة مقاتليها على تلك الجبهات التي استنزفت أكبر الفصائل العاملة في الجبهة الجنوبية، فضلاً عما خلفه هذا الاقتتال الداخليّ من توترٍ وسوءٍ في الأوضاع الأمنية، حتى شهدت المحافظة العديد من الاغتيالات التي استهدفت كبار القيادات، بالإضافة إلى عمليات السطو والسرقة التي سُجّلت معظمها ضد مجهول.

وفي الوقت نفسه استغلت قوات النظام هدوء جبهاتها وانشغال الفصائل بالاقتتال لمحاولة إرسال رسائل إلى بعض القرى والبلدات تدّعي فيها نيتها الصلح والعفو عن أيّ مطلوبين، تبتغي من ذلك تسجيل نصرٍ إعلاميٍّ من جهة، ولتزيد الفرقة بين أبناء المناطق الخاضعة لسيطرة قوات المعارضة من جهةٍ أخرى. وكان آخر تلك المحاولات ما شهدته بلدة موثبين بحضور وفودٍ من مدينة الصنمين وإزرع وغباب ودرعا المحطة، وبوجود مفتي الأسد أحمد حسون، ولكن سرعان ما انتهت تلك الاجتماعات بعد أن استهدفتها قوات المعارضة.

ومع رفض العديد من المدن والبلدات المصالحات عمدت قوات النظام إلى استهداف تلك المناطق بشتى أنواع الأسلحة، كما حدث في مدينة جاسم بعد إصدارها بياناً تعلن فيه رفضها أيّ مصالحةٍ مع النظام، فتمّ استهدافها بغارتين حربيتين طالتا المشفى الميدانيّ الوحيد في المدينة، وراح ضحيتهما تسعة قتلى وعددٌ كبيرٌ من الجرحى.

وعن الحال التي وصلت إليها المحافظة يؤكد الناشط الإعلاميّ أيهم الحوراني لـ«عين المدينة»: «على الرغم من الواقع الصعب الذي تعيشه محافظة درعا، من اقتتالٍ بين الفصائل والاضطرابات الأمنية الكبيرة؛ تبقى الحاضنة الشعبية للثورة هي الأقوى. لم يتقبل أحدٌ فكرة المصالحة مع النظام، وذلك لمعرفتهم التامة بغدره. وإن وجد بعض الأشخاص ممن يخالفون ذلك، سواء أكانوا مدنيين أم عسكريين، فهؤلاء مزروعون من قبل قوات النظام ليزيد من التفرقة الحاصلة ولإضعاف الروح المعنوية».

من الملاحظ أن الغالبية العظمى لأهالي المحافظة ضدّ المصالحة جملةً وتفصيلاً، ولكن، في الوقت نفسه، وُجد أشخاصٌ دفعتهم الظروف الصعبة إلى «تسوية وضع» مع النظام. فمنهم المصابون بأمراضٍ مزمنةٍ وصعُب عليهم العلاج ضمن المناطق المحرّرة فاضطروا إلى التداوي في مناطق سيطرة النظام في ظلّ استمرار دول الجوار في إغلاق معابرها، ومنهم موظفون لا زالوا على رأس عملهم في المؤسّسات المدنية للدولة ولا يملكون مصدر دخلٍ آخر، ومنهم أيضاً أشخاصٌ لديهم معتقلون أو معتقلاتٌ في سجون النظام أقدموا على المصالحة علها تكون -بنظرهم- سبيل الإفراج عن ذويهم. ولكن معظم الذين ذهبوا عادوا وأقرّوا بأن تلك المصالحات هي مصالحاتٌ شكليةٌ وليست أكثر من وعودٍ برّاقة.

ومن جهته أكد أبو غازي، القاضي الشرعي بمحكمة دار العدل، لـ«عين المدينة» أن: «محكمة دار العدل، والتي تعتبر الجسم الأساسيّ لمحافظة درعا، ترفض رفضاً قطعياً عقد أيّ مصالحاتٍ مع النظام، مما يعتبر خيانةً لدم الشهداء وللثورة بشكلٍ عام. وفي الوقت نفسه لا يصحّ الانفراد بعقد مصالحاتٍ مع النظام دون تنسيقٍ مع الجانب العسكريّ والثوريّ في كل المناطق».

سيناريوهاتٌ عديدةٌ تشهدها محافظة درعا. فهل ستفتح معركة «قادسية الجنوب»، التي انطلقت مؤخراً، باب العودة إلى أيام الانتصارات؟

خطة عملٍ بيضاء في ظروفٍ متلبدة بالسواد

مركز للمعالجة الفيزيائية في القنيطرة

آلمار طعمة

خلّفت السنوات المنصرمة الكثير من الإصابات من مختلف الفئات العمرية نتيجة القصف المستمرّ. وعانى العديد من المصابين من صعوبة السفر لتلقي العلاج ضمن المناطق المحرّرة وتكاليفه الباهظة في الخارج، ومن هنا برزت أهمية المعالجة الفيزيائية التي باتت حاجةً ملحةً وضروريةً في ظروف البلاد.

يعدّ هذا النوع من العلاج الطبيعيّ إحدى مهن الرعاية الصحية التي تقدم خدماتٍ للأفراد من أجل تطوير والحفاظ على الحركة وإعادتها إلى الحدّ الأقصى والقدرة الوظيفية في جميع مراحل الحياة. ومن المعروف أن العلاج الفيزيائيّ هو العلاج الطبيعيّ والمهنة الموجودة منذ القدم، ويعتمد على الحركة والتمارين واستخدام بعض الأجهزة العلاجية، ويعدّ جزءاً مكملاً للاختصاصات الطبية الأخرى.

وكغيرها من المناطق التي اشتد فيها النزاع وتعرّضت للكثير من القصف والدمار في سورية؛ تفتقر محافظة القنيطرة إلى مراكز إعادة تأهيل مصابي القصف والمعارك، الذين يضطرون إلى السفر لتلقي العلاج في دول الجوار، ليصبح التنقل سبباً إضافياً في تفاقم حالتهم المرضية.

خاص عين المدينة

تعرّض نصر عبد الله، وهو من أبناء القنيطرة، لإصابتين في يده وساقه، أثناء قصف قوات النظام بلدته الرويحينة، فحاول علاج حالته فيزيائياً في عمّان بالأردن، لكنه لم يستطع تحمّل تكاليف ذلك مادياً. يقول لـ«عين المدينة»: «أنا بأمسّ الحاجة إلى المعالجة الفيزيائية. ولو كان -في فترة سفري إلى عمان- مركزٌ للمعالجة الفيزيائية في القنيطرة لما توقفت عن معالجة حالتي عنده، ولكنت الآن بأحسن حال».

تعدّ المعالجة الفيزيائية حاجةً ثانويةً في العموم، إلا أنها حاجةٌ ماسّةٌ ومهمةٌ بالنسبة إلى الكثير من المصابين. وانطلاقاً من هذه الأهمية عمل أسامة أبو همام، المساعد المجاز بالمعالجة الفيزيائية من جامعة دمشق في العام 2008، على إنشاء «مركز الهمام للمعالجة الفيزيائية» في تموز2016، في قرية بريقة بمحافظة القنيطرة، لتقديم الخدمات للعديد من الحالات التي تحتاج إلى علاج فيزيائيّ. وعلى الرغم من قلة الدعم وعدم توافر التمويل اللازم من الجهات المعنية في المعارضة خارجاً أو من المجلس المحليّ، إلا أن ذلك لم يمنع أسامة أبو همام من إنشاء مركزٍ بسيطٍ للتأهيل والعلاج الطبيعيّ.

يقول أبو همام لـ«عين المدينة»: «كنت أعمل في مشفى جاسم الوطنيّ. وفي بداية الثورة عملت في مشفى جاسم الميدانيّ، ثم معالجاً فيزيائياً جوالاً بين قرى وبلدات محافظتي القنيطرة ودرعا، حيث عالجت العديد من الحالات المرضية للمدنيين والكثير من الإصابات للعسكريين جراء المعارك، فعالجت حوالي 450 حالةً من بينها 300 إصابة حرب».

وقال: «لم أتلقّ أيّ دعم، وافتتحت المركز من مالي الخاصّ. يحوي المركز على كامل المعدّات الحركية من جهاز مساج وتنبيهٍ كهربائيٍّ ودولاب للكتف، بالإضافة إلى الساونا». وأكد أبو همام: «قمت بصناعة جميع هذه الأجهزة بخبرةٍ مني وبمساعدة محلّ حدادةٍ في المدينة. ومن الحالات التي ابتدأت علاجها في المركز حالة المريض نصر عبد الله». ويضيف: «عمل المركز، منذ تأسيسه، على استقبال كل الحالات الوافدة، من الإصابات الحربية والحالات المرضية بشكلٍ عام. نستقبل حوالي 10 حالاتٍ يومياً، من القنيطرة ومن قرى وبلدات ريف درعا الغربيّ والشماليّ».

وما يدل على أهمية المعالجة الفيزيائية ما جرى مع الكثير من الحالات، وما يجري مع الطفل معتز الطحان الذي يرتاد المركز يومين في الأسبوع، ويقول لـ«عين المدينة»: «أصبت في قدمي بسبب قذيفة. عولجت إثرها في مشفى القنيطرة الوطني، لكن ركبتي أصيبت بالتكلس. حاولت معالجتها فيزيائياً في المنزل إلا أن المعالجة كانت ضعيفة»، مضيفاً: «منذ افتتاح المركز بدأت معالجة قدمي فيه وبتّ الآن أفضل من السابق».

رغم أن «مركز الهمام» نموذجٌ مصغرٌ لمراكز التأهيل، إلا أنه حقق بعض الإنجازات بالنظر إلى إمكانياته البسيطة وحداثة إنشائه، من خلال عنايته وتأهيله عدّة حالاتٍ من المرضى والمصابين، ومساعدتهم في العودة إلى حياتهم الطبيعية والصحية شيئاً فشيئاً، وبجهدٍ فرديّ.

الماء البارد في زمن الحرب

مريم أحمد

معرة حرمة – ريف إدلب الجنوبي – خاص عين المدينة

يعيش سكان المناطق المحرّرة حالةً إنسانيةً صعبةً بسبب تضييق النظام بقطع الكهرباء والماء والمواد التموينية وحتى الطبية عن المناطق الخارجة عن سيطرته. وبسبب قطع الكهرباء أصبح من الرفاهية أن تحصل على ماءٍ باردٍ في الكثير من المدن والبلدات، وصارت المشروبات الباردة حكراً على الميسورين.

معاناة الحصول على الماء البارد

انعدمت الكثير من مقوّمات الحياة حتى اعتاد الناس على العيش من دونها، على الرغم من الحاجة الملحة إلى بعضها. وأصبح من الصعب تحصيل ثمن زجاجة الماء البارد في ظلّ نسبة البطالة العالية وانخفاض الأجور وانهيار الليرة. وزاد ارتفاع درجات الحرارة -التي تجاوزت الأربعين درجةً في بعض أيام هذا الصيف- من معاناة الناس. كما زاد الغلاء الكبير في أسعار المياه المبردة الطين بلة، وأضاف إلى أعباء حياتهم الكثيرة هماً آخر هو البحث اليوميّ عن لوح «البوظ» (الثلج) الذي وصل سعره في بعض الأيام إلى 1500 ليرة، أي ما يعادل 3 دولاراتٍ أميركية، وهذا رقمٌ كبيرٌ في بلدٍ لا يزيد فيه الأجر اليوميّ للموظف أو العامل على دولارين.

عبد الرحمن العبيد (52 عاماً، من ريف حماة الشماليّ) قال لـ«عين المدينة»: «في رمضان أكبر همومي هو تأمين الماء البارد. في السابق كنا نفكر ما الذي ستحويه مائدة الإفطار من طعام، أما الآن فأصبح تفكيرنا ينحصر في هل سنومّن ماءاً بارداً هذا اليوم أم لا؟ بعد ظهر كلّ يوم تبدأ رحلتي للبحث عن لوح بوظ».

ثمانية قتلى بسبب لوح بوظ

كثيراً ما يحصل شجارٌ بين المشترين والبائعين بسبب جشع الأخيرين واستغلالهم ارتفاع درجات الحرارة ليرفعوا سعر لوح البوظ عدة أضعاف، وفي بعض الأحيان تحصل مشادّاتٌ لفظيةٌ بين المشترين أنفسهم نتيجة الازدحام حول البائع. أصبح هذا المشهد مألوفاً للأسف، لكن غير المألوف أن يتطور الشجار ليصبح بين أهالي بلدتين ويسقط ثلاثة قتلى و12 جريحاً. هذا ما حصل في بلدة البارة بريف إدلب الجنوبيّ، عندما تدافع رجلان أحدهما من أهالي البلدة والآخر من بلدة مورك بريف حماة أمام بائع البوظ، ليتطور التدافع إلى شجارٍ كبيرٍ وتبادلٍ لإطلاق النار، انتهى بعددٍ من القتلى والجرحى وخروج نازحي مورك من البلدة. وفي ذلك اليوم قام النظام باستهداف البارة بالبراميل والصواريخ بسبب دخول عددٍ كبيرٍ من الثوار لفضّ الاشتباك بين المتشاجرين، فسقط خمسة شهداءٍ من المدنيين من البلدة بالقصف، وشيّع الأهالي في اليوم التالي ثماني جنائز.

مصدر دخل

في ظلّ النقص الكبير في فرص العمل وجد الكثير من الشباب في تجارة البوظ وسيلةً لكسب الرزق وتأمين مصدر دخل، فمتوسط دخل بائع البوظ يتراوح بين الـ3000 و5000 ليرةٍ في اليوم، وصارت الشوارع والأزقة ومراكز القرى والبلدات تشهد وجوداً دائماً للعاملين في هذه المهنة.

يقول عبد المنعم أبو أحمد (39 عاماً): «في كلّ صيفٍ، منذ ثلاث سنوات، أعمل ببيع الثلج في ريف إدلب الجنوبيّ. يتراوح سعر القالب بين 600 و1500 ليرة، ويزداد السعر مع ارتفاع درجات الحرارة. ويبلغ وزن القالب الواحد 6 كغ. يؤمّن بيع الثلج دخلاً جيداً، وهو عملٌ مريحٌ ولا يحتاج إلى رأس مال كبير». ويتابع: «يلقى بيع الثلج إقبالاً جيداً من الأهالي ومن أصحاب محلات اللحوم الذين يشترونه بشكلٍ كبيرٍ لحفظ بضاعتهم».

معامل البوظ

جعلت جملةٌ من العوامل من صناعة البوظ عملاً مربحاً؛ أهمها انقطاع الكهرباء الحكومية وارتفاع أسعار بدائلها، وانتشار المخيمات غير المخدّمة بالتيار الكهربائيّ في الشمال السوريّ، ووجود كثافةٍ سكانيةٍ كبيرةٍ في الأرياف الشمالية لإدلب، ما دفع المستثمرين وأصحاب الأموال إلى إنشاء عشرات المعامل، التي تتراوح كلفة الواحد منها بين 10 و15 ألف دولار، وغالبيتها من الماركات القديمة نصف الآلية.

محمد جراح، صاحب أحد هذه المعامل، قال لـ«عين المدينة»: «نبيع غالبية المنتج لتجار يبيعونه بدورهم في المخيمات والقرى في ريف إدلب. يتراوح إنتاجنا بين 5 و20 طن بحسب حرارة الجو. للعمل صعوباتٌ كبيرةٌ أهمها القصف، فتجمع السيارات للتحميل يعرّضنا للخطر لأن طائرات الاستطلاع ترصد التجمعات، بالإضافة إلى صعوبة تأمين الملح الخاصّ للمعمل، ولذلك ترتفع الأسعار في بعض الأيام».

أسهمت معامل البوظ في إيجاد فرص عملٍ للكثير من الشباب الذين يعانون الأمرّين لتأمين دخل، وخففت من صعوبة الحصول على الماء البارد، رغم ارتفاع الثمن في كثيرٍ من الأحيان. ولكنها حلولٌ تبقى قاصرةً ومكلفةً للإنسان الصابر والمتمسك بالأرض رغم الثمن الكبير الذي يدفعه.

يوسف زوعة... قصّة بطولة

محمد سرحيل

في الحادي عشر من آب 2016 نعت الثورة السورية أحد أوفى أبنائها، لتضجّ الأوساط الثورية بنبأ استشهاده، وتملأ صفحات الإنترنت مناقبه، كيف لا وهو البارّ الذي لم يتخلّ أو يجبُن عن الالتحاق بها والذّود عنها مرّةً تلو الأخرى، رغم ما لحقه وأصابه خلالها.

وُلد يوسف يحيى زوعة، قبل سبعة وثلاثين عاماً، في قرية بوزغار التابعة لمحافظة إدلب شمال سورية. متزوجٌ وله أربعة أطفال. خرّيج المعهد المتوسّط للآثار والمتاحف بدمشق، وشغل منصب مدير متحف الطّب والعلوم الإنسانية في حلب.

مولعٌ بالآثار

عُرف عنه حبّه الشديد وولعه بكل ما يمتّ للتراث والحضارة الإسلاميّين بصلة، بل تجاوز اهتمامه بالآثار درجة الحب ليصل إلى درجة الهوس. ولم تكن زياراته إلى مدينة حلب بين الحين والآخر تخلو من جولةٍ في أحيائها وأزقّتها القديمة؛ إذ لا بدّ من الاطمئنان على سلامة بعض آثارها الصّامدة!

إلا أنه كان يرى أن صمود الآثار السوريّة والحفاظ عليها لا يتأتّى إلا بإسقاط نظام الأسد، فقد كان يقول: «ليس هناك أي معنىً أو قيمةٍ لحفظ الآثار ما لم نُسقط هذا النظام، لأنّه سيزوّر كل تاريخنا وحضارتنا لو انتصر علينا».

ثائرٌ من الجيل الأول

عرفته الثورة مبكّراً، ابتداءً من المظاهرات وليس انتهاءً بحمل السلاح. عمل في بداية الاحتجاجات على تنظيم المظاهرات والمشاركة فيها متنقّلاً بين قرى وبلدات حلب وإدلب، حيث اشتهر باصطحاب مكبّرات الصوت. وكذلك شارك في العديد من النشاطات السلميّة الأخرى، التي كان أشهرها إطلاق «بوالين الحرية» وإلقاء عددٍ من اللافتات الثورية في نهر «قويق» الذي عرف في ما بعد بـ «نهر الشهداء».

حَمْل السّلاح

كما الكثيرين من أبناء الثورة، حمل (أبو يحيى) السّلاح دفاعاً عن سورية وشعبها، وانتقل مع زوجته وأولاده إلى مسكن قريب من إحدى الجبهات التي يشرف عليها، لئلا ينشغل بأهله عن جهاده ورباطه، ولتشاركه زوجته ثورته وتعالج رفاقه المصابين، وتعدّ لهم الطعام والشراب.

حاز عدة رتب عسكرية في صفوف الجيش الحرّ، فمن قائد كتيبة إلى قائد لواء الأنصار، ليرحل أخيراً وهو يشغل منصب قائد المجلس العسكريّ لجيش المجاهدين، وأحد أبرز مؤسّسي غرفة عمليات فتح حلب والفاعلين فيها.

خاض وقاد العديد من المعارك، من أبرزها معركة تحرير الأتارب وباب الهوى وخان العسل والفوج 46 والراشدين، كذلك المعركة الشهيرة «فالمغيرات صبحاً» بمراحلها الخمس. يقول الشيخ يحيى، صديقه المقرّب في جيش المجاهدين: «لم يُسجَّل تخلّفه عن أيّ معركة من معارك حلب، بل كان يشارك أحياناً بصفته الشخصيّة إن لم يشارك فصيله بشكل رسميٍّ ومباشر. كان يجمع ولا يفرّق، يلتفّ حوله ويحبّه كلّ من عرفه والتقى به، يعمل للمصلحة العامة ولا يعرف التعصّب لفصيلٍ دون غيره».

بقي ملازماً للجيش الحرّ إلى أن استُشهد في صفوفه، إذ كان يراه مشروع شعبٍ ثائر، وليس مشروع حزبٍ أو تنظيمٍ أو جماعة.

من السجن إلى المعركة

أوائل العام 2013 أُسِرَ يوسف لدى تنظيم داعش، ليطلق سراحه بعد عدّة أيام بموجب صفقة تبادل، تحدّث خلالها عن سوء المعاملة التي تلقّاها، وبُعد التّنظيم عن أدنى تعاليم الإسلام.

عاد ليقع في الأسر مرّةً أخرى أواخر عام 2014 على يد إحدى الميليشيات الشيعية قرب قرية نبّل بريف حلب الشماليّ. وبعد تسعة أشهر أُطلق سراحه مرّةً أخرى، بموجب صفقة تبادل أيضاً. ونُقل عنه أنّه وضع خطةً لتحرير حلب خلال أسره في نبّل.

ومما رُوي عنه عقب خروجه من الأسر الثّاني أنه أصرّ على زيارة مقاتليه في المعسكر، لئلّا يشغلهم باستقباله عن التدريب والإعداد!

قائدٌ مقدام

عُرف بشجاعته وإصراره. يتقدم صفوف مقاتليه في المعارك، ليكون الاقتحاميّ الأول بينهم. وَحْدهُ الموت ما يحول بينه وبين أيّ هدفٍ يضعه نصب عينيه كما كان يقول، وقد حال الموت فعلاً بينه وبين حلمه بتحرير حلب.

سُئِل أحد مقاتليه، بعد أن أُصيب وفقد بصره، عن أكثر ما يشتاق إلى رؤيته فأجاب: «أشتاق لرؤية ظهر يوسف زوعة ونحن مقبلون على المعركة».

عُرف أيضاً بإعداده الجيد وتخطيطه، إذ كان يقول: «علينا أن نعدّ أنفسنا ونعرف عدوّنا بشكلٍ جيد، أما النتائج فهي من صنع الله نصراً كانت أم شهادة»!

أسّس قبل رحيله مدرسةً داخليةً شمال سورية، أطلق عليها اسم مدرسة إعداد القادة، فلئن رحل فإن غرسه سيثمر بعد حين!

غادرنا في معارك فكّ الحصار عن مدينة حلب، وودّعنا كما ينبغي لقائدٍ مثله أن يرحل... شهيداً جميلاً مضرّجاً بدماءٍ زكيّةٍ في أشرس وأنبل معارك حلب.

يـوم انتحر عفلق

د. أنس فتيّح

كانت دراستي الثانوية (1998 – 2000) في مدرسة المتفوقين في مدينة دير الزور، عندما كانت تسمّى مدرسة «الشهيد باسل»، قبل أن يطلق عليها الثوار لاحقاً اسم الفتى الشهيد محمد ملا عيسى. في ذلك الوقت كان هناك اهتمامٌ مصطنعٌ من الجهات الحكومية بهذه التجربة الحديثة، ما استدعى زيارة وزير التربية للمدرسة مرتين في عامين متتاليين، إضافةً إلى زيارات المسؤولين المحليين وإطلالات الجرائد الرسمية.

وطبعاً، لأننا في سوريا الأسد، يجب أن ينسحب الاهتمام إلى الحزب. ولذا لم يكتف فرع حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ في دير الزور بتنسيب الطلاب المتفوقين كأعضاء أنصار (جمع نصير)، كما يفعل في كل مدارس سوريا، بل زاد عليه أن جعل الاجتماعات الحزبية تتمّ أسبوعياً في مكتبة المدرسة، بعد انتهاء الدوام مباشرةً، مما لا يترك مجالاً لأيّ طالب -أقصد لأيّ رفيق بعثيّ- أن يتهرب من حضور الاجتماع. وكان أن انتدب الحزب الرفيق أبو عبد الله ليكون أميناً لحلقتنا الحزبية. زاول الرفيق أبو عبد الله مهمته منذ اليوم الأول على أكمل وجه، فبعد ترديده الشعار قسم الاجتماع إلى ثلاثة محاور؛ الأول عن النظام الداخلي، والثاني للنشرة السياسية، والثالث يفتح فيه باب النقاش. كان المحوران الأول والثاني هما الأسهل بالنسبة إلينا، فكل ما علينا هو الاستماع إلى هراءٍ تعودنا سماعه، ولا بأس من بعض التثاؤب خلاله، إلا أن المحور الثالث، أي النقاش، كان أمراً لا يطاق. لم يحظ الرفيق أبو عبد الله في الاجتماع الأول -بعد كلّ التشجيع والتحفيز- إلا على سؤالٍ واحد، تعرّض سائله لنظراتٍ حادةٍ من الطلاب الرفاق الذين ينتظرون لحظة انتهاء الاجتماع والعودة إلى البيت بفارغ الصبر. كان الرفيق أبو عبد الله أكثر خبثاً في الاجتماع الثاني، فأعلن أن الاجتماع لن ينتهي قبل أن تكون هناك ثلاث مشاركاتٍ من الأنصار على الأقل، كانت هذه ورطةً بكل ما في الكلمة من معنى لنا. لكن، للأمانة، عليّ أن أذكر أن الرفيق أبو عبد الله قد سهل المهمة علينا كثيراً، فيكفي أن يُطرح سؤال، أياً كان هذا السؤال صغيراً أو كبيراً، تافهاً أو هاماً، لينطلق في الحديث مطولاً ومطولاً جداً، ليس عما يخص السؤال وحده، بل عن كل ما يرغب هو في الحديث عنه، دون أن يتمكن أحدٌ من إيقافه.

واحدةٌ من أهم ميزات الرفيق أبو عبد الله، التي يتشاطرها مع كثرٍ من البعثيين، هي الكذب بتلقائية؛ كان الكذب أمراً عفوياً لديه، لا يحتاج إلى تأملٍ أو وقتٍ لاختراع الكذبة، مهما كان نوعها أو حجمها. فعندما سئل عن سبب إلغاء نتنياهو زيارته لفرنسا امتدّ جوابه لحوالي ثلث ساعة، مجّد فيه القائد المناضل أولاً، ثم كشف أن السبب هو اكتشاف الموساد الإسرائيليّ كميناً كانت قد جهزته المخابرات السورية لاغتيال نتنياهو في باريس! تكلم طالبٌ آخر حول حصار العراق وبرنامج النفط مقابل الغذاء، وهنا فرح الرفيق أبو عبد الله وكأنه التقط صيداً ثميناً، وأخذ يخطب بنا عن مواقف سوريا القومية وحكام الخليج المتخاذلين ووقوف القيادة إلى جانب الشقيقة العراق رغم كل الضغوطات ورغم كل انحراف بعث العراق. ولم يقنع الرفيق أبو عبد الله بالوقوف عند تلك الكليشيهات فحسب، بل حدثنا عن قصةٍ لم يسمع بها أحدٌ غيره، وراح يروي بتفاصيل أدقّ من الدقيقة كيف تدخل القائد المناضل بإنسانيته المعهودة لحلّ مشكلةٍ عائليةٍ داخل بيت صدام، وتوسّط بين الأخير وابنه الغر عدي، فحلت القضية وعادت المياه إلى مجاريها!! وفي سرديةٍ أخرى لحكايا الرفيق أبو عبد الله التي لا تنضب، حدثنا بفخرٍ عن التطوير التقنيّ الذي أجراه الجيش العربيّ السوريّ لدباباته، وكيف أن البنتاغون حاول الحصول على معلوماتٍ -ولو مبسطةٍ- عن هذا التطوير، وباءت محاولته بالفشل!

دون أن يرفّ له جفن، أمام شبانٍ وشاباتٍ في السابعة عشر من العمر؛ مضى الرفيق أبو عبد الله في دجله دون وازع. وجاءت أبرز إبداعاته وأشدها تألقاً في إجابةٍ عن سؤالٍ طرحه أحد الرفاق الدراويش عن ماهية الرسالة الخالدة للأمة العربية في شعار الحزب؛ فردّ الرفيق أبو عبد الله: سُئل الرفيق القائد المناضل حافظ الأسد هذا السؤال فأجاب: (الرسالة الخالدة للأمة هي الإسلام).

خاص عين المدينة

جرابلس بعد التحرير

أول الهموم.. الأمن والقضاء العادل ومحو آثار «داعش»

محمد حمدان

قبل عامين تقريباً، ومن باب بيتها المطلّ على ساحة البريد وسط المدينة، شاهدت أم إبراهيم رأس ابنها عديّ معلقاً بجدار. لم تكن تدري ما يحدث في الخارج لولا أن طرق ابن جيرانها المبايع لتنظيم «داعش» الباب، لتفتح وتشاهد التجمهر الصامت أمام رأس ابنها المقطوع قبل لحظات.

شارك ابن الجيران في تنفيذ الإعدام، وبادر، من تلقاء نفسه، إلى إشراك أم إبراهيم في الفرجة على رأس ابنها. لم تجد ما تفعله وقتذاك سوى الدعاء عليه بـ«روح إن شاء الله ما يلتقى لك أثر». صارت هذه الدعوة مضرب مثلٍ في الانتقام الإلهيّ من المجرمين بعد أن قُتل ابن الجيران بغارةٍ لطائرات التحالف ولم يُعثر له على أثرٍ فعلاً، كما يؤكد الناس هنا في جرابلس التي يتبادل أهلها اليوم التهاني بخلاصهم من «داعش». ولكن لا يبدو أن تقهقر التنظيم سيخفف من هول ما لاقته هذه المرأة وغيرها من أمهات وآباء الضحايا. يقول صاحب دكانٍ يطلّ على الساحة ذاتها أنه شاهد معظم الإعدامات التي نفذتها «داعش» لكنه لا يريد أن يتذكر: «إش أحكي؟ شي ما ينوصف... كانو بعد ما يذبحون الزلمة ويعلقونه هناك يجون ياكلون كباب هين بهالمطعم». حسب نشطاء يبلغ عدد من قتلتهم «داعش» من أبناء المدينة (80)، ومثلهم ما زالوا مجهولي المصير في سجون التنظيم.

تسأل امرأةٌ وقفت أمام بيتها المارّة عن وجهة عناصر «داعش» المطرودين من المدينة، وتقول إنها مشغولة البال على مصير ابنتها المتزوجة من عنصرٍ في التنظيم، وتروي حكاية ذلك الزواج المشؤوم: «تجوزها غصب بعد ما كانت مرة أخوه اللي مات، وأخذها معاه. يقولون راحو عالباب، ويقولون عالرقة، وما أدري عن هالبنيّة شي». ويكشف قلق هذه الأم نوعاً آخر من الضحايا هو الفتيات اللواتي أكرهن على الزواج من «دواعش».

في الشوارع المغبرة بفعل حفرياتٍ متعددة الأغراض (صيانة شبكات المياه والكهرباء، وانتزاع الألغام، وغيرها) يسهل تمييز من تبقى في المدينة خلال احتلال «داعش» عن الوافدين الجدد بعد تحريرها، بما يظهر من علامات بؤسٍ في وجوه الأولين رغم تخلص كثيرٍ من الرجال من الزيّ الذي تفرضه داعش. في صالون حلاقةٍ تزاحم الراغبون في التخلص من اللحى الإجبارية، ويؤكد الحلاق أن أكثر من (500) شخص قد زاروا محله خلال أسبوع واحد. تخلصت معظم النسوة والفتيات من غطاء الوجه أيضاً، وعادَ المدخنون إلى تبادل السجائر وإشعالها علناً دون خشيةٍ من أحد. ويسهم حضور مقاتلي الجيش الحرّ في تطبيع الأجواء وأنسنتها مقابل ما كان أيام «داعش». يقول معلم مدرسةٍ سابقٌ، كان منشغلاً بتوصيل الماء إلى بيته، إنه كاد يصاب بالجنون من حالات الضغط والرعب في كلّ لحظةٍ دون انقطاع، وخاصّةً مع إقامة بعض قادة «داعش» في جواره: «هذا البيت أخذو أبو حمزة العراقي، وهذا أبو بطيخ المصري، وهذا ما أعرف مين!».

تتوافق آراء أهل جرابلس، من مواقع توزّعهم المختلفة داخل المدينة وخارجها، على ضرورة بناء مؤسّساتٍ لإدارة المدينة وتجنيبها الفوضى. ويؤكد ناشطوها على أهمية تأسيس قضاءٍ عادلٍ وحازم ونزيهٍ ينظر في مئات الجرائم التي ارتكبها مبايعو «داعش» من أبناء المدينة. وهي «جرائم تبدأ من الأذى والإهانات التي ألحقها «دواعش» بكثيرٍ من أهل البلد، وتنتهي بالإعدام والتعذيب حتى الموت في السجون»، كما يقول محمد، وهو ناشط في لجنةٍ أهليةٍ تهتم بشؤون السلم الاجتماعيّ. وتبدو المخاوف من وقوع حوادث انتقامٍ عشوائيةٍ مخاوف محقةً مع مستوى الضرر العميق الذي ألحقته «داعش» بالنسيج الاجتماعيّ للمدينة، فقد حرصت على استقطاب أكبر عددٍ ممكنٍ لها، من جميع المكونات العشائرية والعرقية في مجتمع جرابلس. ويعدّ محمد هذه القضية التحدي الأكبر المطروح أمام القوى والفعاليات الثورية والأهلية، ويحذر من «الارتخاء وتكرار أخطاء الماضي التي تراكمت من وقت تحرير المدينة من النظام لتفتح الباب أخيراً لاحتلال داعش لها». ومثل غيره من أبناء البلد يرى أن فقدان الاحساس بالمسؤولية العامة، والعصبيات العائلية والعشائرية، وكذلك الجهل والطيش؛ هي الأسباب الرئيسية لكل «الويلات التي مرّت بها البلد».

رغم تلك الهموم التي يتقاسمها كثيرون خرج مصطفى، وهو من أشد الكارهين لتنظيم «داعش»، يفتش عن علب دهانٍ ليبدأ حملته الخاصّة لرسم علم الثورة ومحو آثار «داعش».

حوار عن المجلس المحليّ في جرابلس وريفها:

الأتراك سيزوّدوننا بالكهرباء، وسيعاقب القضاء المتورّطين مع «داعش»

حاوره: هيئة التحرير

أدى احتلال تنظيم «داعش» لمدينة جرابلس، أول العام 2014، إلى تفكك مجلسها المحليّ ثم حله نهائياً، قبل أن يعاد تأسيسه في تركيا، منذ بضعة أشهر، بهدف بناء مؤسّسةٍ قادرةٍ على إدارة شؤون المدينة فور تحريرها، إضافةً إلى تقديم ما يمكن من رعايةٍ لأبناء جرابلس اللاجئين في مدن قرقميش ونزب وعنتاب التركية، حيث تتركز أغلبيتهم.

وخلال الأيام الأولى بعد التحرير كثف المجلس أنشطته تحضيراً لمباشرة أعماله، بالتزامن مع توسيع دائرة الحوار مع المشككين بكفاءة بعض أعضاءه. وكان الرأي العام لمجتمع المدينة ميالاً إلى تقبل هذا المجلس ولو لمدّةٍ محددةٍ إلى حين تهيؤ الظروف لإجراء انتخابات لاختيار مجلسٍ جديد. ولكن هذا التقبل لم يحل دون تفاقم المشكلات باتجاهاتٍ غير متوقعة، إذ تشكل -وبصورةٍ غامضة- مجلسٌ محليٌّ آخر من أعضاء أثاروا جدلاً واسعاً بسبب الشبهات التي تحوم حول بعضهم، وتطعن في انتمائهم وإخلاصهم للثورة حسب ما يتردد في السجالات العامة لناشطي جرابلس الذين يذهب بعضهم إلى حدّ اتهام أعضاء من هذا المجلس بالولاء لنظام الأسد أو بالتواطؤ مع تنظيم "داعش" أثناء احتلاله المدينة. ويربط أحد الفاعلين في هذا الملف (طلب إغفال اسمه) ما حدث في هذا الشأن بالدور الهدام "لبعض ذوي النفوذ" من أهل جرابلس، الذين "ضللوا الأتراك المسؤولين عن هذا الموضوع". وفي خطوةٍ لافتةٍ أعلن المحامي محمود العلي، رئيس المجلس المحليّ الأول، استقالته في بيانٍ مصوّر بث على شبكة الإنترنت، برّر فيه الاستقالة بحرصه على "قطع الطريق على أصحاب الفتنة الطامحين لضرب النسيج الاجتماعي بين مكونات منطقة جرابلس". وطالب أعضاء المجلس بانتخاب رئيسٍ جديد، وتمنى على الحكومة التركية "إنجاحاً لمشروع درع الفرات أن تتعامل مع هذا المجلس المحليّ الشرعيّ، لأن فيه خيرة الثوار..."، ودعا ثوار جرابلس إلى تفعيل الهيئات والتجمعات الثورية في المنطقة "كسابق عهدها في بداية الثورة".

ونظراً لأهمية الأدوار التي يجب على المجلس أن يضطلع بها، أجرت "عين المدينة" هذا اللقاء مع أحد أعضاء المجلس المحليّ الأول، والذي طلب هو الآخر إغفال اسمه بسبب الجدل الدائر اليوم.

ما هي المهمّات الأساسيّة التي حدّدها المجلس المحلي ضمن برنامج عمله بعد الخلاص من «داعش»؟

تشغيل كلّ المؤسّسات والمرافق العامة بأسرع وقتٍ وعلى أكمل وجهٍ ممكن، فنبدأ أولاً بتشغيل الفرن الآليّ (الحكوميّ سابقاً) بعد أن فكّكت «داعش» معظم أجزائه وسرقتها أثناء رحيلها عن المدينة. سنركّب، بمساعدة الحكومة التركية، التجهيزات اللازمة ليباشر العمل بأسرع وقتٍ ممكن. وسنعيد تشغيل محطة معالجة وضخّ مياه الشرب على ضفة نهر الفرات فور الانتهاء من صيانتها التي بدأت بالفعل، بالتزامن مع صيانة ما يلزم من شبكة الأنابيب. ويجري الآن أيضاً نزع الألغام التي زرعتها «داعش» في بعض النقاط والمقاطع في شبكة الصرف الصحيّ بغاية تفجيرها أثناء انسحابها، والحمد لله أنها لم تتمكن من ذلك. بدأنا أيضاً بصيانة شبكة الكهرباء ووُعدنا من الجانب التركيّ بتأمين مصدرٍ للطاقة؛ إما بتمديد خط تغذيةٍ مرتبطٍ بالشبكة التركية في مدينة قرقميش، أو بتزويدنا بمولدات كهرباء ذات استطاعاتٍ كبيرةٍ ليتمّ تركيبها بشكلٍ مدروسٍ في مراكز عدّة في أحياء المدينة. وجاري العمل والتحضير لمباشرة عمل المؤسّسات والقطاعات الأخرى.

ما هي خططكم في الملفين الأمنيّ والقضائيّ؟

يولي المجلس المحليّ الجانب الأمنّي أهميةً خاصة، إذ تتوقف عليه كل أعمال المجلس، بل وتتوقف عليه أيضاً عودة النازحين واللاجئين من أهلنا الذين شُرّدوا داخل سوريا وخارجها. يجب تأسيس قوة شرطةٍ أو أمنٍ منظمةٍ ومنضبطةٍ يقودها ضباط، لإشاعة جوٍّ من الأمن والأمان للأهالي، وكذلك لتخدم الجهاز القضائيّ المزمع تأسيسه في المدينة. واتفقنا مع الحكومة التركية على ضرورة خروج الفصائل المقاتلة إلى مقرّاتٍ خاصّةٍ خارج المدينة فور انتهاء الأعمال العسكرية المباشرة في محيط جرابلس. وفي ملفّ القضاء بدأنا المشاورات الأولية مع التجمعات والمجالس القضائية والحقوقية الحرّة لتأسيس جهاز قضائيٍّ على مراحل، بدايةً من المحاكم الأولية وانتهاءً بتغطية كل الاختصاصات القضائية المطلوبة. وطبعاً سيعمل في هذه المحكمة أو المحاكم قضاةٌ مؤهلون علمياً من القضاة المنشقين عن النظام بعد اندلاع الثورة. وستكون القوانين السورية، بعد تعديل بعض موادها، هي المعتمدة في هذه المحاكم، مع مراعاة الظروف الراهنة. سيُعرض كلّ من اقترف جريمةً على القضاء وسيلقى محاكمةً عادلةً إن شاء الله. لا بغاية العقوبة والانتصار للضحايا والمظلومين فقط، بل لضمان السلم الأهليّ في مجتمع جرابلس، لتمكين القضاء والحؤول دون وقوع أيّ أعمال ثأرٍ وانتقام قد تتعدّى المتهمين إلى ذويهم وعائلاتهم، مما يهدد السلام المجتمعيّ في المدينة.

وفي الجانب التعليميّ والتربويّ؟

يعمل مكتب التعليم الآن مع نظيره في مجلس محافظة حلب -الذي يتبع مجلسنا له- على إعداد خطةٍ لإطلاق العملية التعليمية في مدارس جرابلس، بعد انقطاع أطفال المدينة عن الدراسة لأكثر من عامين ونصف خلال مدّة سيطرة «داعش» التي دمرت المنظومة التعليمية بالفعل. ولا بدّ هنا من تكليف جهازنا التعليميّ بوظيفةٍ أخرى إلى جانب وظائفه المعتادة، وهي إعادة تأهيل الأطفال والمراهقين الذين خضعوا لتأثيرات «داعش» الهدامة، وذلك عبر برامج تأهيلٍ خاصّةٍ يجب إعدادها بعنايةٍ ودقةٍ فائقتين.

جرابلس بين تحريرين، من «داعش» ومن الأسد

فاضل العيساوي

خاص عين المدينة

تواجه مدينة جرابلس اليوم، بعد تحريرها من تنظيم «داعش»، التحديات ذاتها التي واجهتها بعد تحريرها من نظام الأسد قبل أربع سنوات، وقد أضيفت إليها التركة الثقيلة التي خلفتها «داعش».

يبلغ عدد سكان جرابلس وريفها نحو (35) ألف نسمة. ويتألف نسيجها الاجتماعيّ من عشائر طي وجيس والدمالخة العربية، ومن عائلاتٍ تركمانية، ثم كرديةٍ بدرجةٍ أقل. وفي حقبة حكمه عبث نظام الأسد بهذا النسيج مستعملاً وسائل عدّة، كان أوضحها إشاعة روح التنافس بين أفرادٍ بعثيين من مختلف المكوّنات على مناصب حزبيةٍ وحكوميةٍ محدّدةٍ سلفاً وفق محاصصةٍ غير معلنةٍ لتوزيع هذه المناصب. وقد أراد بهذا التخصيص استرضاء المكوّنات ومنحها الإحساس بالمشاركة وبالانتماء اليه، وأراد به أيضاً بث الفرقة والتناحر المنضبط تحت سقف سطوته. وكما في أيّ مجتمعٍ سوريٍّ آخر أضعف النظام مراكز القوى التقليدية أو أفسدها، لضمان تابعية الجميع وولائهم له كقوّةٍ وحيدةٍ ومسيطرة.

اندلعت الثورة وسجّلت مكونات مجتمع جرابلس مشاركةً متفاوتةً فيها. ثم جاء الخلاص من النظام ليخضع المجتمع كله لتجربةٍ غريبةٍ عليه، وهي أن يكون حرّاً وحاكماً لنفسه، ومرتبطاً -في الوقت ذاته- بتحولات صراعٍ كبيرٍ متعدد الأقطاب. ومثله مثل معظم المجتمعات السورية خضع مجتمع جرابلس لحمولات ماضيه الخاصّ، فافتقد إلى مرجعياتٍ راسخةٍ تقدر على تحقيق الحدّ الأدنى من الوحدة في وجه الأزمات، وظلت العصبيات العشائرية والعرقية والعائلية، بالإضافة إلى الطيش والمطامع والارتجال، تفعل أفعالها المعوقة لأيّ خطوةٍ قد تخطوها بعض القوى الثورية الواعية نحو إنتاج مؤسّساتٍ تتمكن من أداء مهماتها كما ينبغي. وأدى التعامل الرخو والتساهل مع مظاهر الفوضى، وربما تواطؤ البعض مع المجرمين بأنواعهم، بعدّها قدراً لا فكاك منه وقت الأزمات؛ إلى كوارث صعُبت النجاة منها في ما بعد على الجميع. يصعب التنبؤ الدقيق بمآلات تلك التجربة في حال لم تظهر «داعش» على مسرح الأحداث، لكنها، وعلى أسوأ التقديرات، كانت ستكون أرحم من احتلال «داعش» أو عودة سيطرة النظام.

بتحرير مدينة جرابلس اليوم أتيحت الفرصة مرّةً أخرى لقوى الثورة لأن تطلق مشروعها من جديد، في بناء مؤسّساتٍ تفرض الأمن والاستقرار وتوفر خدماتٍ ورعايةً صحيةً وتعليماً للسكان. ويبدو التكهن باحتمالات نجاحها في ذلك مرهوناً بدرجة استخلاصها العبر من دروس ماضيها القريب، وبمقدار عزمها على التغلب على عوامل ضعفها السابقة. وهي ستخفق حتماً في النهوض بواجبها كسلطةٍ بديلةٍ وضروريةٍ في هذه الأوقات إن لم تتوحد في أطرٍ وهياكل متماسكة. وستؤثر الجدية التي تبديها الدول إذ يترتب على هذه الدول أن تساعد الإدارة الجديدة في تأمين موارد تغطي النفقات العامة وتسهم في تحسين الواقع الاقتصاديّ المنهار من خلال مشاريع تنمويةٍ صغيرةٍ ومتوسطةٍ تتيح وظائف لآلاف العاطلين عن العمل، كما تشجع آلافاً آخرين على العودة الى ديارهم. ولأن انصهار فصائل الجيش الحرّ وكتائبه المختلفة في جيشٍ موحدٍ ومنضبطٍ شرطٌ رئيسيٌّ لحماية البقعة المحرّرة الآخذة بالاتساع، يجب على تلك الدول، وخاصةً تركيا -بحكم موقعها الجغرافي ودورها المباشر في تحرير جرابلس- أن تساعد في هذا الشأن.

ألحقت «داعش» ضرراً عميقاً بمجتمع جرابلس، فجعلت من كلّ فردٍ ممن تبقى تحت سلطتها هناك ضحيةً أو مجرماً أو صامتاً عن جريمة. وحسب تقديراتٍ بالحدود الدنيا يفوق عدد «الدواعش» المتورّطين بجرائم مثبتةٍ من أبناء المدينة (200) شخص، فرّوا جميعاً مع قوافل «داعش» المطرودة إلى مدينة الباب. ويتوزع المجرمون في منابتهم على كلّ المكوّنات الاجتماعية، مثلما يتوزع الضحايا. تعدّ هذه القضية واحدةً من أهمّ التحديات الراهنة، مما يجعل من تأسيس محكمةٍ خاصةٍ تنظر في الجرائم المرتبطة بـ«داعش» خطوةً ضرورية، بالتعاون مع المجتمع المحليّ، لاسترداد ما يمكن استرداده من حقوق، ولمحاسبة كل من اقترف جريمةً أو شارك فيها أو تواطأ، لا من أجل العدل فحسب، إنما لفرض هيبةٍ وشرعيةٍ وحضورٍ طالما افتقدتها بنى الثورة الناشئة أمام المجتمعات الحاضنة لها.

العوامل الداخليّة في قوّة أو استمرارية النظام

أحمد عيشة

عندما اندلعت الثورة السورية في ربيع 2011 كان أكثر المتشائمين يتوقع أنها ستنتهي بالخلاص من النظام في مدّةٍ لا تتجاوز الستة أشهر، وإن امتدت كثيراً فلن تصل إلى العام. ولكنها تجاوزت الخمس سنين ونصف، قتل النظام فيها حوالي نصف مليون، واعتقل مئات الألوف، وهجّر قسراً الملايين، وما زال المبعوث الدوليّ العظيم يسعى إلى إقناعه بضرورة الانتقال السياسيّ الذي يكون لبشار الأسد دورٌ مقيدٌ فيه وليس غائباً بالكامل. فما هي العوامل الداخلية التي كانت خلف ما وصلنا إليه؟

نعم، لم ينطبق حساب السوق على حساب الصندوق كما يقول المثل الشعبيّ، وأغلب الظن أننا لم نحسب جيداً ما في الصندوق.

تلجأ الأنظمة الاستبدادية عادةً إلى بناء روابط خارج أطر المؤسّسات التقليدية، أما في بلدنا فالدولة بكامل مؤسساتها كانت تقوم على قانونَي الاستثناء والتمييز، فكان لبناء الروابط المختلفة دورٌ هامٌّ في سياسة النظام للحفاظ على استمراريته.

كان العامل الأول المتضخم في عهد السلالة الأسدية هو كتلة المخابرات بإدارتها الأربع وتفريعاتها التي تتجاوز الثلاثين، التي ضمت في عدادها عشرات الألوف وتغلغلت في كافة مسامات المجتمع لتفككه وتعيد تركيبه كأفرادٍ بلا هويةٍ لا يثقون ببعضهم. والعامل الثاني هو الجيش الذي كان عقائدياً لحماية النظام، ويخضع بتراتبيته لولاءاتٍ غير وطنية كذلك. أما العامل الثالث، الذي بناه النظام أثناء الثورة، فهو تشكيل ميليشيات الدفاع الوطني (الشبّيحة)، وهم من الفئات الهامشية في المدينة والريف، الذين تمكنت الآلة الإعلامية للنظام من اجتذابهم بحجّة الدفاع عن الوطن، ونتيجة الوضع الاقتصاديّ بعد أن أصبح آلاف الشباب عاطلين عن العمل فكانوا الجمهور الأسهل، إضافةً إلى بعض الميليشيات العرقية (الأرمن) والطائفية (المسيحيين) والمناطقية.

لقد سعى النظام جاهداً إلى إعادة تأسيس تراتبيةٍ لا وطنيةٍ ضمن كلٍّ من الجيش والمخابرات، من خلال خلق روابط أخرى مع أفراد هاتين الجهتين بقصد تعزيز ولائهم من خلال الامتيازات التي يغدقها عليهم (سكن، بعثات عسكرية، مكافآت سخية، بعثات دراسية للأبناء، لجان مختلفة في شراء السلاح والتموين)، إضافة إلى ما عُرف بظاهرة التفييش (دفع رشاوى عينية أو مبالغ نقدية للضابط المسؤول مقابل عدم الذهاب إلى القطعة العسكرية، أو مقابل إجازاتٍ متكررة، أثناء الخدمة الإلزامية) دون التعرّض لأيّ مراقبةٍ أو مساءلة، فهيئات الرقابة العسكرية وليدة نفس الآلية.

العامل الأكثر أهمية في تدعيم النظام هو العامل العكسي، أي الذي يكمن في مواقف خصومه ومعارضيه العسكريين والسياسيين، فكلا النوعين قدّم خدماتٍ كبيرةً لصالح استمرار النظام من خلال الأساليب المتبعة في مواجهته.

فعلى الصعيد السياسيّ تشكلت هيئاتٌ منذ العام الأول للثورة وما زالت إلى اليوم خاضعةً للتجديد وفقاً للمصالح والضرورات الإقليمية والدولية أكثر من المصالح السورية، فكانت تعكس خطاباً جامداً يكتفي بالدعوة إلى ضرورة إسقاط النظام، وملحقاً بمواقف الدول الراعية.

وعلى الصعيد العسكريّ كانت الأعداد المتزايدة من التشكيلات المتنافرة، والباحثة عن مناطق نفوذ ومكاسب (غنائم)، يعزّزها وجود الشرعيين الباحثين عن تبريراتٍ لقادتهم من جهة، ودعماً لمواقعهم ولنفوذهم الجديد من جهةٍ أخرى.

يبدو أن العامل الأخير، ولا سيما بالنسبة إلى السوريين الذين خرجوا بثورتهم، هو الأكثر أهمية، وذلك لسبب عدم القراءة المعقولة للوقائع والعوامل المركبة لبنية النظام وتشابكاته وتأثيراتها على الطرف الآخر المعارض. فسياسات النظام، ومفاعيلها في تفتيت المجتمع وزرع الكراهية بين أبنائه، خلقت العقلية الانعزالية التي تقوم على الشك والارتياب بالآخر، مما أسهم بشكلٍ كبير -بين صفوف السياسيين والعسكريين- في عدم خلق كيانٍ وطنيٍ فعليّ، بمعنى جامع مناهض للاستبداد ومناصر لقيم الحريةً والكرامةً التي دفع من أجلها السوريون مئات الألوف من البشر وغُيّب وشُرّد الملايين. بل أسهم في خلق كياناتٍ حزبية، أو مناطقية، شرطها الأساسيّ التنازع في ما بينها والتشكيك في بعضها وصولاً إلى حدّ التخوين، والغوص بعيداً في التفاصيل التي تفرّق أكثر مما تقرّب، وبالتالي الابتعاد عن الهدف الجامع وهو مناهضة نظام الاستبداد. فلعب تنوّع اللافتات الحزبية والرايات العسكرية، بما هي نتاجٌ للعقلية الأمنية التي برع النظام وحلفاؤه في زرعها، والتي تأسّست بعد تفتيت النسيج الاجتماعيّ الأهليّ السوريّ، عاملاً في التفتيت أكثر منه في التقارب، لتعيد تركيب هذا النسيج وفق ثوابت جديدةٍ أهمها تقاسم الكراهية وتبادل الاتهامات.

هذه ليست دعوةً إلى العقلية الواحدة ومنع التنوّع والاختلاف، بل إلى التخلص من العقل الانعزاليّ نحو العقل المنفتح والتعامل بإيجابية، واضعين نصب أعيننا الغاية الكبرى وهي الخلاص من الاستبداد، ومصير الوطن الذي تحول إلى قطعٍ جغرافيةٍ للمساومة.

©Taylor Jones - El Nuevo Día caglecartoons.com

يتسرّبون كقطعٍ من الروح

بكر صدقي

«حَلّوا المراكب مع المغرب وفاتوني» و«يا مسافر وحدك وفايتني» أغنيتان طلبتُ من مصطفى الجرف أن يغنيهما، ليلة ودعناه وبتول، قبل سنة وبضعة أشهر، قبيل سفرهما إلى فرنسا. أبدع أبو عبد العزيز في غنائهما بصوته القويّ المؤثر، فكانت السهرة لحظةً فالتةً من الزمن، لا يمكن أن تتكرر.

كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل. ليل غازي عنتاب المخصّص للنوم منذ ساعاته المبكرة، لا للسهر كشقيقتها الكبرى حلب. وهكذا اضطررت إلى سماع لوم مبطن من جارتي، في اليوم التالي، حين صادفتني على الدرج. لكن الثمن بدا لي مقبولاً بالقياس إلى المشاعر الغنية التي عشتها في سهرة البارحة.

سافر آخرون، قبل مصطفى وبتول وبعدهما، نحو منافٍ بعيدة لم يكن أيٌّ منهم يتخيل، قبل بضع سنوات، أنه سيقصدها هارباً مضطراً. وكثُرَ المغادرون، شهراً بعد شهر، إلى حدّ أنني بدأت أشعر بأن المدينة بدأت تخلو؛ وربما يأتي يومٌ، غير بعيد، لن نجد فيه من نتحدث إليه. يعود الأمر، في جانب منه، إلى انغلاق علاقاتي الشخصية على دائرة ضيقة ممن أعرفهم عن قرب، غالباً، من أيام سوريا، وطبيعة عملي الذي لا يتطلب الاحتكاك بالناس. لكني أملك من الأسباب ما يجعلني أفترض أن حال كثيرين ليست بأحسن من حالي. ذلك لأن رائحة الموت التي تلاحق السوريين أينما حلوا تخلق مزاجاً عاماً لا يمكن التغلب على مفاعيله بالعلاقات الشخصية، أو بكثرة اللقاءات وتبادل الكلام.

كانت فجيعتنا بناجي الجرف، أواخر العام الماضي، ذروة هذا الإحساس بالتراجيديا السورية. لا أعرف إن كان من سوء حظي أو حسنه أنني حضرت سهرة وداع ذلك الشاب الجميل بابتسامته التي لا تفارق وجهه. كانت سهرةً صاخبةً ومزدحمةً بالحضور. لولا أن مجلسي وقع، بالصدفة، لصق مجلسه، لما تمكنا من تبادل أيّ كلام. حدثني عن التهديدات التي تلقاها، وعن محاولة اغتيال تعرّض لها، قبل أيام، ونجا منها بأعجوبة. فعبّرت عن خوفي عليه بالقول: حدث كل هذا وما زلت هنا؟ ورجوته أن يقدِّم موعد سفره المقرّر بعد بضعة أيام.

بعد يومين جاء خبره. عاجله القتلة قبيل السفر بيومٍ واحد.

يغيبون، إذاً، اغتراباً أو قتلاً أو غرقاً في بحر إيجة كحال الطفل إيلان الذي استحال رمزاً للمأساة السورية. والبعض يُقتلون برصاص حرس الحدود التركيّ قبل الوصول إلى المنفى الأقرب، في طريقهم إلى ذلك الأبعد.

كثرٌ يمضون في رحلتهم خلسة، من غير أن يودعوا الأصدقاء والمعارف. ربما ينتابهم شعورٌ بالذنب أو الحرج، أو لا يريدون شهوداً على هروبهم وهزيمتهم وقهرهم. نسمع، من غير سابق إنذار، أنهم وصلوا إلى ألمانيا أو السويد أو فرنسا أو هولندا أو غيرها من بلاد الله الواسعة. قلةٌ فقط يتسنى لنا أن نودعهم. شعورٌ بالمرارة والقهر يظهر على شكل دموع لا يمكن ضبطها، تسيطر دائماً على لحظات الوداع. هل يا ترى سيتّاح لنا أن نلتقي مرّةً أخرى، في مكانٍ ما، أم أنه العناق الأخير؟ هل يكفي ما تبقى من العمر للقاءٍ جديدٍ مع أشخاص اعتدنا وجودهم قربنا، كالماء والهواء، حتى لو لم يكن ذلك في سوريا التي تبتعد عنا كل يوم أكثر وأكثر؟

بمرور الأشهر والسنوات تحولت غازي عنتاب، بالنسبة لكثيرين، إلى وطن، وكأن من يغادرونه إنما يغادرون الوطن إلى الغربة. ربما هي نفسها حال أورفة أو أنطاكية أو إسطنبول أو بيروت أو القاهرة، أو أن حال عنتاب مختلفة لأنها أكبر منافي السوريين في تركيا، بما يقارب النصف مليون لاجئ. وهو ما يشكل ربع عدد سكان المدينة.

عاديٌّ في عنتاب، اليوم، أن تلتقي بسوريين لا تعرفهم، ولا تسعى إلى التعارف معهم. كأيّ سوريٍّ في دمشق أو حلب أو أيّ مدينة سورية أخرى، يلتقي يومياً بكثير من الوجوه التي يراها للمرّة الأولى، في الشارع أو الباص أو المقهى أو الجامع، فلا يستثار فضوله للتعرف إلى أصحابها. هذه حال كثير من السوريين في عنتاب المزدحمة بهم. تشتري حاجياتك من محلٍّ سوريّ، ولا ينشأ تعارفٌ بينك وبين أصحابه. تلتقي بحشدٍ من السوريين أمام دائرة الهجرة، جاؤوا للحصول على إذن السفر، فلا يسعى أحدٌ إلى التعرف على أحد. كلٌّ منشغلٌ بهمومه ومأساته الوطنية الخاصة به.

«ودّعني من غير ما تسلّم.. وكفاية قلبي أنا مسلّم.. دي عينيّ دموعها.. دموعها بتتكلم».

سبب ذهابي إلى حلب

سامر عطار
نيويورك تايمز/ 26 آب
ترجمة مأمون حلبي

يقع المشفى الذي أعمل فيه في مدينة حلب في أحد الأقبية. قُصف المبنى الذي فوقه مرّاتٍ كثيرةً إلى درجة أن استعمال الطوابق العليا بات شديد الخطورة. البراميل وأكياس الرمل تصطفُّ كساترٍ على المدخل لتحصينه.

تقع حلب على مسافةٍ بعيدةٍ من مدينة شيكاغو التي أعيش فيها، والتي لها نصيبها من المعاناة الإنسانية. لكن المشفى الذي أعمل فيه في شيكاغو يمتلك أحدث المعدّات الطبية وبعضاً من أفضل الأطباء وكوادر التمريض في العالم؛ فالمشارط حادّةٌ وغرف العمليات معقّمة، مع وفرةٍ في الاختصاصيين. حلب، أيضاً، فيها بعضٌ من أفضل الأطباء وكوادر التمريض في العالم، لكن من بقي منهم قليلون للغاية، وهم منهكون ومعرّضون للخطر، ويحتاجون إلى المساعدة. من أجل هذا أتطوّع للعمل الطبيّ في سوريا. فحتى الأسابيع القليلة التي أستطيع أن أقدّمها كلّ عام تمُدُّ الجراحين القلائل الذين يخدمون 300 ألف شخص في منطقةٍ حربيةٍ بشيءٍ من الراحة والتخفيف. إنها لمسؤوليةٌ كبيرة، لكني أشعر أني لا أستطيع أن أطلب من قادة العالم أن يجازفوا بأرواح مواطنيهم لإنقاذ الناس هناك إن كنتُ أنا نفسي غير مستعدٍّ للقيام بمخاطراتٍ كهذه. أسابيعي في حلب فيها عملٌ مكثّف. في شيكاغو، حيث أختصُّ بالمعالجة الجراحية للأورام، أعاين مريضاً واحداً كلّ مرّة. في حلب، أعاين عشرين مريضاً دفعةً واحدة. هنا، في حلب، يعيش المرء مجزرةً تلو الأخرى: مجزرة لأطفالٍ في المدرسة، أو لعائلاتٍ وهي نائمةٌ في بيوتها أو تتبضع في أحد الأسواق. نسمع الطائرات وهي تزأر والحوامات وهي تهدر في السماء، ومدافع الهاون وهي ترمي، بعدها نسمع القنابل وهي تنفجر، يتبع ذلك صوت صفارات الإنذار وزعيق الناس. في بعض الأيام يبدو أن صوت الزعيق لا ينتهي أبداً. يندفع عددٌ كبيرٌ جداً من الناس عبر بوابة المشفى. ليس هناك ما يكفي من الأسرّة، لذا على المرضى أن يشاركوا بعضهم النقالات أو يتمدّدوا على الأرض. أحياناً لا يكون هناك متسعٌ للحركة لوجود المصابين متمددين على الأرض وقد غطتهم الدماء وأجزاء من الأجساد البشرية. لقد تبقّى عددٌ قليلٌ جداً من المشافي الميدانية في حلب، لذا فالمرضى العالقون خارجاً ولا يستطيعون الدخول يموتون أحياناً على عتبة مشفانا.

بعدها، وبشكلٍ فجائيّ، ينتهي الأمر. أمشي مبتعداً. يأخذونني عبر أزقةٍ يرصدها القناصون، وعبر مناطق معرّضةٍ للضربات الجوية، ومروراً بنقاط تفتيشٍ لكي أعبر الحدود إلى تركيا. ومن هناك أسافر جواً إلى بلدي. يحطّمني هذا الأمر في كلّ مرّة. في لحظةٍ ما، أنا في مشفىً واقعٍ تحت الأرض يهتز من انفجارات الصواريخ، ونحن نقوم بإنقاذ من نستطيع إنقاذه ونراقب أولئك الذين لا نستطيع إنقاذهم وهم ينزفون حتى الموت. في اللحظة التالية، أنا في مقهى المطار أراقب رجلاً يرتدي بدلةً عصريّةً وهو يقطع طابور الناس، أو امرأةً توبّخ النادل لأنه وضع أكثر مما ينبغي من مكعبات الجليد في فنجان الشاي. لا شيء له معنى، ويشعر المرء كما لو أنه شبح. حالما تكون هناك، فإنك في الواقع لا تغادر حلب أبداً.

لدى عودتي إلى شيكاغو فإن مرضاي هم من يساعدونني على أن أحافظ على تركيزي. كانت لديّ مريضةٌ عانت من ورم خبيثٍ في الساق عندما كانت في الثامنة من عمرها. تحمّلت عاماً من العلاج الكيماويّ وتمّ استئصال قسم من عظمة الساق السفلى للتخلص من السرطان، وتلا ذلك علاجٌ بالأشعة. أعاقت المعالجة نمو ساقها وشوّهت كاحلها، لكنها كانت تريد أن تتمكن من الجري ولعب كرة القدم. في رحلةٍ إلى كولورادو من أجل التزلج، شاهدت الفتاة أناساً يتزلجون على أطرافٍ اصطناعية، وهذا ما كانت تريده. عندما أصبحت في الحادية عشرة نظرت في عينيّ وطلبت مني أن أبتر ساقها اليسرى. لقد أبدت الفتاة كثيراً من القوة. ذكّرتني بأحمد، فتىً سوريٌّ فقد كلتا ساقيه وفقد أمه عندما دمّرت قذيفةٌ منزلهم. كان يأمل أن يحصل ذات يوم على أطرافٍ اصطناعيةٍ تشبه أطراف الإنسان الآلي لكي يتمكّن من

المشي. قدرته على الشفاء كانت مُلهمة.

في كلّ مرّةٍ أعود إلى حلب تكون الظروف أسوأ، وإمكانيات العيش أضعف. الأسواق، والأطفال في الشوارع، وجلبة العيش اليومية يحلّ محلها الركام. قفارٌ تذكّر بالقيامة، فيها مبانٍ كئيبةٌ لها أسطحٌ منهارةٌ وسلالم متصدّعة. لكن الناس ما زالوا يعيشون وسط الخرائب. تراهم ينشرون الغسيل من غرفةٍ في الطابق الثالث لمبنىً مقسوم إلى نصفين. وترى الأطفال يتسلّقون تلّةً من الأنقاض ارتفاعها 10 أقدام وهم في طريقهم إلى البيت يحملون شيئاً من الخبز والماء. على الحياة أن تستمر، وعلى الناس أن يجدوا طرقاً للتأقلم. إنهم يفضّلون أن يواجهوا الموت في بيوتهم على أن يعانوا في مخيم للاجئين، أو يخاطروا بالغرق في مركب.

بالنسبة إلى طبيب جرّاح في هذه الأجواء، قرارات تحديد المصابين الذين لهم أولوية المعالجة تعني الفرق بين الحياة والموت. أمٌّ تتوسل إليّ أن أعنى بابنها. جمجمته مفتوحة ودماغه مكشوف. لقد مات. ليس ثمة ما نستطيع فعله. أنتقل إلى فتاةٍ لديها شريانٌ متمزقٌ في ساقها المبتورة. قد تنزف حتى الموت في غضون دقائق، لكننا نشتري الوقت بالضغط والربط بقطعة قماش. بجوارها شابةٌ أخرى. يدها اليمنى فقدت معالمها: أربطة منفلتة وأصابع ملتوية وعظام مهشمة. تمسك أمها كتفي وهي تتوسل إليّ أن آخذ ابنتها إلى الجراحة أولاً. لكن الفتاة على قيد الحياة وتستطيع الانتظار. قد يدوم هذا الأمر لساعات. لا أعود أشعر بالزمن. أخيراً تتلاشى حالة التشوّش والفوضى. أرضيات الغرف تُمسح وتُنظّف، ويتمّ لفّ الموتى بأكفانٍ بيضاء ويوضعون في الشارع لإفساح مجالٍ للموجة التالية من الجرحى والمحتضرين. يشعر المرء بالعجز. لا توجد أيادٍ كافيةٌ للمساعدة، وليس بالإمكان إنقاذ الجميع. أينبغي أن نعطي كل مخزوننا من الدم لننقذ حياةً واحدة؟ أم ينبغي أن نُقنّن هذا المخزون لننقذ خمس أشخاص يحتاج كلٌّ منهم إلى بعض الدم؟ الخيارات مستحيلة، ومع ذلك نختار.

ضحّى الأطباء السوريون وعمال الإنقاذ في حلب بكل شيء، وبعضهم ضحّوا حتى بأرواحهم. إنهم يصلون إلى مكان عملهم كلّ يوم رغم كل الفظاعات المرعبة. أولئك الذين يتطوّعون منّا لا يستطيعون إيقاف القنابل، لكننا نستطيع أن نخدم متضامنين مع منقذي الأرواح في سوريا. إن لم أستطع أن أساندهم وأمشي على خطاهم لبضع أسابيع في العام، فمن سأكون؟ إنهم من بين أكثر الناس الذين قابلتهم قط بطولةً وشجاعةً ونكران ذات- مثلهم مثل رجال إطفاء مدينة نيويورك الذين قابلتهم في 11 أيلول 2001. انحشرتُ، أنا الذي كنت طالب طبٍّ في ذلك الوقت، في سيارة إسعافٍ مع ممرضين وأطباء واتجهنا نحو الدخان والرماد لنساعد. شاهدت رجال إطفاءٍ ومسعفين ورجال شرطةٍ ومواطنين يندفعون إلى مركز التجارة العالميّ. ذاك كان الطرف الذي كنت أريد أن أكون في صفه. كتبنا أسماءنا على قفا صدارينا الطبية بأقلام حبرها أسود في حال كانت هناك حاجةٌ للتعرف على أجسادنا. كنت خائفاً، لكني كنت محاطاً بأناسٍ طيبين يفعلون ما هو صحيح. لم يخالجني ذلك الشعور ثانيةً إلى أن عدت إلى حلب في آب 2013. كنت قد زرت سوريا عدّة مرّاتٍ من قبل وكنت أعرف حلب، لكن زيارة آب كانت سفرتي الأولى منذ أن بدأ النزاع. الحزن والهلع اللذان شعرت بهما في أيلول 2001 أشعر بهما كلّ يوم في حلب. ذات يوم عالجنا طفلاً أصيب في انفجار. كانت شظايا عظميّة لأحد المارّة مغروزة في جلده. ضربةٌ جويةٌ أصابت مدرسته أثناء مناسبةٍ خيريةٍ للتبرّع بملابس للفقراء. آخر شيءٍ تذكره الطفل كان رؤية صديقه المفضل يتمزّق أمامه. شاهدني والد الطفل وسأل من أنا ولماذا كنت أتكلم بلغةٍ غريبة. شرح له أحد الممرضين أني طبيبٌ أميركيّ. قال لي إنه لم يقابل أميركياً أبداً. لم يكن يعتقد على الإطلاق أن سيأتي يومٌ يجيء فيه طبيبٌ أميركيٌّ -طبيبٌ ذو دم سوريٍّ لكنه ولد وتربى وسط حريات وترف الولايات المتحدة- إلى حلب ليساعد في زمن الحرب.

أعطى هذا الأمر عملي بُعداً جديداً: ارتباطٌ محسوسٌ للتخفيف من معاناة شعبٍ تمّ التخلي عنه طويلاً. هذا الارتباط يجعل الناس يعرفون أنهم ليسوا وحيدين، وهو قد جعلني أكثر امتناناً لحياتي في أميركا. إنه أيضاً السبب في عودتي.

حلب – مشفى القدس بعد استهدافه – خاص عين المدينة

حمص
٧٠٠ يومٍ من الحصار

محمد عثمان

أكل من تبقى من مقاتلين ومدنيين في أحياء حمص القديمة الحشائش وأوراق الشجر وجلود الأبقار، وذبحوا القطط والسلاحف والضفادع. هذا جزءٌ مما يوثقه وليد الفارس، عضو المجلس الثوريّ لحمص وأحد المحاصرين، في كتابه الصادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات عام 2015.

يبدأ الكتاب باستعراض مسار الثورة في حمص، منذ مظاهراتها السلمية وحتى حمل السلاح، تأسيساً على الصراع الديموغرافيّ الصامت الذي شهدته المدينة في السنوات السابقة، بانتقال نسبٍ كبيرةٍ من علويّي الأرياف إليها وسكنهم في أحياءٍ خاصةٍ قدّمت الكثير من أبنائها على مذبح النظام بعد أن اتخذوا موقفاً مناهضاً للثورة منذ البداية، واستلموا السلاح من أجهزة النظام لقمعها، وتجاوزوا أوامر أجهزة الأمن في أحيانٍ كثيرةٍ ليرتكبوا مجازرهم الخاصة، كما في حيّ كرم الزيتون وحيّ السبيل ومنطقة الحولة. وهكذا عمّت المقاومة الشعبية المسلحة الأحياء الثائرة، وأخذت تنحو ببطءٍ من المجموعات الصغيرة إلى التنسيق والتكتل.

وبالنظر إلى سمعتها كـ «عاصمةٍ للثورة»، وخروج معظم أحيائها عن سيطرته فعلياً، قرر النظام القيام بحملةٍ عسكريةٍ واسعةٍ على حمص في مطلع 2012، تمكّن في بدايتها من اقتحام حيّ بابا عمرو الشهير، ثم أخذ يقصف الأحياء الأخرى ويداهمها بأعدادٍ كبيرةٍ من المقاتلين، حتى استطاع إغلاق المنفذ الأخير بين الأحياء الأربعة عشر التي ستغدو محاصرةً وبين حيّ الغوطة، لتبدأ بذلك المعاناة التي استمرّت حوالي سنتين.

كانت أعداد العائلات في هذه المناطق كبيرةً عند إغلاق المنفذ، فبدأت عملية إجلاءٍ سريعةٌ استمرت ثلاثة أيام عبر بساتين خطرة ومكشوفة، قبل أن يستهدفها قنّاصو النظام فتتوقف المغادرة إلا على مرّاتٍ متقطعة عبر أنفاقٍ كانت تُكتشف وتُردم كلّ مرّة.

استهلك سكان المنطقة المحاصرة أغلب المؤن الموجودة في المنازل والمحلات خلال الأشهر الستة الأولى. وتزامن شحّ المواد الغذائية مع توقف الفرن الوحيد في المنطقة عن إنتاج الخبز بسبب عدم وجود الخميرة، ومع قصفٍ عنيفٍ على مدار الساعة، فحلّ الشتاء كئيباً مع افتقار المنطقة إلى المحروقات. وبعد مرور عام على الحصار خسر الثوار حيّ الخالدية الذي كانت مطاحن القمح فيه توفر للمحاصرين الجزء الأكبر من القمح الذي صار يُطحن ويُخبز في البيوت. وبدأت معاناة الناس الحقيقية، حتى أصبحت ثمار الزيتون الوجبة الرئيسية، وصار الاعتماد على الشوربة الفقيرة بالعناصر أساسياً.

ومن جانب آخر كانت المحاولات العسكرية والسياسية لفكّ الحصار مستمرّة، وإن شابها الكثير من الارتجال والاضطراب ولم تثمر في حقيقة الأمر عن شيء. ومن أبرز المحاولات العسكرية حملة «قادمون يا حمص» التي أعدّ لها العقيد فاتح حسّون، قائد المجلس العسكري في المحافظة، بمساعدة الشيخين المعروفين سهل جنيد ومحمود الدالاتي وعلاقاتهما، ودعم من هيئة حماية المدنيين. وبعد بدء الحملة بمدّةٍ قصيرةٍ، وتحقيقها بعض الإنجازات في طريقها الطويل للتقدم إلى حمص، تبيّن أن عدداً كبيراً من قوّات كتائب الفاروق الإسلامية -المشاركة في الحملة- قد بايعت داعش وأخذت السلاح الذي في حوزتها وانسحبت إلى شرق البلاد، ومن ثمّ عادت إلى أرض المعركة بصحبة قوّاتٍ أخرى من التنظيم للاستيلاء على باقي العتاد الخاصّ بالحملة التي صارت قوّاتها تقاتل النظام من الأمام وداعش من الخلف. واستطاع التنظيم أسر 250 من مقاتلي الحملة ومؤازريهم، والاستيلاء على ثلاثين سيارةً محمّلةً بالسلاح والذخيرة، وفشلت الحملة بالطبع!

أما الضغط بالوسائل السياسية فيكفي اختصاره بتصريح ميشيل كيلو أنه طلب من ميخائيل بوغدانوف، نائب وزير الخارجية الروسيّ، إدخال مواد إنسانيةٍ إلى حمص التي تعاني الجوع ويموت بعض مرضاها وجرحاها نتيجة نقص الأدوية والتجهيزات الطبية، فكان ردّ الأخير هو السؤال عن مقابل ذلك..

وفوّض الثوّار أمين الحلوانيّ، الطبيب الحمصيّ المقيم في الإمارات، في شأن إجلاء المدنيين وإدخال موادّ طبية. فزار القيادات العسكرية والأمنية في النظام، وسعى إلى تقديم مبادرةٍ متكاملةٍ ترضي الطرفين، ولكن هؤلاء «المسؤولين» طلبوا منه مراجعة السفارة الإيرانية التي بدت غير مهتمة، إذ قال أحد مسؤولي خارجيتها للحلواني إن الثورة قد انتهت وإن بضعة صواريخ ستتكفل بالقضاء على من تبقى في سورية من المسلحين. وبعد هذا الفشل أحالت «القيادات» الأمنية والعسكرية في النظام الحلواني إلى مسؤول «الدفاع الوطني» (الشبّيحة) في حمص للاتفاق معه على أيّ بنودٍ مناسبة!

وأخيراً جرت المفاوضات النهائية عبر الجبهة الإسلامية التي كانت تعتقل عناصر إيرانيين وآخرين محسوبين على النظام في معارك سابقة، وتحاصر نبّل والزهراء الشيعيّتين في ريف حلب، فتمّ الاتفاق على إخراج جميع المحاصرين إلى الريف الشماليّ بأسلحتهم الفردية وذخائرهم، في أيار 2014.

في الكتاب معلوماتٌ غنيةٌ أخرى عن فصائل حمص المحاصرة، وقياداتها، ومحاولات توحيدها، ومعاركها البارزة لصدّ تقدّم النظام أثناء الحصار. وكذلك عن النشاطات المدنية، والكوادر والخبرات التي كانت موجودة، وجهودها السياسية والإعلامية والتربوية.

فضل الدين ميكائيل

بتعيينه قائداً لمعارك بشار الأسد في ريف حماة عاد العقيد فضل الدين ميكائيل إلى صدارة المشهد، بعد غيابٍ لحوالي العامين قضاهما مهمّشاً في قطعٍ عسكريةٍ على أطراف دمشق.

مثل نجم كرة قدم عائدٍ إلى فريق متهالك، احتفى جمهور المؤيدين بقائد دفاعهم الوطنيّ السابق الذي سيجعل من كلّ شيءٍ في هذه المحافظة على ما يرام. إذ سيسحق جموع «الإرهابيين الكفار» في حلفايا وطيبة الإمام وصوران وغيرها، وسيحارب اللصوص وقطاع الطرق وبائعي «الذخيرة والمازوت للمسلحين»، وسيعيد تنظيم «الدفاع الوطني» ويجعل منه حشداً شعبياً يشبه حشد العراق. ولا تتوقف الأمنيات عند هذا الحدّ بل تذهب إلى تشكيل قوّتين هائلتين؛ الأولى بقيادة العقيد سهيل الحسن والثانية بقيادة العقيد ميكائيل الذي أطلقوا عليه لقب «العقاب» تناظراً مع «النمر» سهيل.

قبل أربع سنواتٍ بدأت شهرة ميكائيل عندما قاد حملات تصفيةٍ وقتلٍ وتهجيرٍ على أساسٍ طائفيٍّ في عدّة قرى وبلداتٍ في ريف حماة، كان أشهرها مذبحة قرية قنيز حين قتل أكثر من مئةٍ من أهلها دفعةً واحدة، قضى نصفهم ذبحاً بالسكاكين، واحتفظ بآخرين منهم أحياء ليطوف بهم في الضيع ذات الأغلبيات الموالية للنظام، تمكيناً لذوي المقتولين في جيش الأسد من تنفيس نقمتهم بضرب هؤلاء الأسرى وإهانتهم قبل أن يقتلوا في ساحات تلك الضيع. مكافأةً على ذلك عيّن ميكائيل قائداً لـ«الدفاع الوطنيّ» لتبدأ مرحلةٌ إجراميةٌ أخرى في سيرة هذا الضابط، إذ وسّع عمليات الخطف والاعتقال بذريعةٍ أو دون ذريعة، وحوّل مقرّه في معسكر دير شميل إلى سجنٍ كبير، لا ينجو المعتقل فيه من الموت تحت التعذيب إلا بدفع فديةٍ ماليةٍ كبيرة. وعمل أيضاً على تقليص نفوذ القادة الفرعيين لمجموعات الشبيحة بانتزاع ما يصادرونه من بضائع وسياراتٍ ونقلها إلى مستودعاته ثم بيعها أو إعادتها إلى أصحابها مقابل مبالغ تحدّد حسب قيمة هذه المسروقات. وفي الوقت الذي كان فيه سماسرته يساومون الناس على إطلاق سراح أبنائهم أو إعادة ممتلكاتهم كان ميكائيل يظهر، بين حين وآخر، في مقاطع مصوّرةٍ يقرّع فيها أتباعه على انشغالهم بالنهب والسرقة دون القتال، مما وسّع من دائرة المعجبين به في صفوف مؤيدي النظام. ويبدو أن جشع ميكائيل المنفلت ورغبته في احتكار الخطف ومصادرة البضائع وسرقة السيارات صنعت له أعداءً كثيرين نجحوا في إزاحته ونقله بعيداً عن محافظة حماة، قبل أن يعود إثر الهزائم التي منيت بها قوات الأسد مؤخراً في ريف المحافظة الشماليّ.

في اهتماماته الأخرى يتباهى ميكائيل بانتمائه إلى قرية الربيعة «أم الشهداء» التي قارب عدد القتلى منها في صفوف قوّات الأسد الألف، ويتباهى أيضاً بثقافته الدينية وبنسبه الذي يمرّ بالأمير فضل الدين حاكم مصياف قبل بضعة قرون، ثم بالمعزّ لدين الله الفاطميّ، لينتهي بالحسين بن علي كما يقول.

مجلّة عين المدينة نصف شهرية سياسيّة متنوعة مُستقلة

عضو الشبكة السورية للإعلام المطبوع

ayn-almadina.com
info@ayn-almadina.com

@3aynAlmadina
/3aynAlmadina

- لا تعبر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

حلب القديمة - عدسة سعد إبراهيم - وكالة قمرة - خاص عين المدينة